الطب البديل للأسرة



إعداد: غدويس و غروست

من أسرار العقل

- الاستبصار
- التجارب خارج الجسد
- الشباح الضاجة
- الإدراك المسبق
- الحركة النفسية
- التخاطر

ترجمة
أحمد رمُو



دار علاء الدين

Geddes & Grosset

Mind over Matter



- **من أسرار العقل**

الاستبصار - التجارب خارج الجسد -الأشباح الضاجة

الإدراك المسبق - الحركة النفسية - التخاطر

- **تأليف: غوديس وغروسيت.**
- **ترجمة: أحمد رمُو.**
- الطبعة الأولى ٢٠٠٤. عدد النسخ /١٠٠٠/ نسخة.

- تمت الطباعة في دار علاء الدين للنشر.
- **هيئة التحرير في دار علاء الدين.**

- الإدارة والإشراف العام: م. زويا ميخائيلينكو.
- التدقيق اللغوي: صالح جاد الله شقير
- الغلاف: م. محمد طه
- المتابعة الفنية والإخراج:
- أسامة راشد رحمـــة

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص.ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١، فاكس: ٥٦١٢٢٤١

البريد الإلكتروني: ala-addin@mail.sy

المقدمـــة

من الصعب توخي الدقة بما تعنيه كلمة ((عقل)). فنحن نستخدم هذه الكلمة دون تفكير، كما هي الحال مع معظم الكلمات التي نكرر استخدامها في مجرى الحياة اليومية. وهي ببساطة ترد إلى شفاهنا بصورة آلية في بعض سياقات الكلام، وهذه السياقات ليست متشابهة دائماً.

فنحن نستخدم كلمة ((عقل)) فيما يخص عمليات التفكير وقدرات الفهم. وهكذا، نتحدث عن ((التفكير ملياً في عقولنا، وعن شخص كبير معطوب دماغه يحمل ((دماغ طفل))، وعن أناس يبحثون عن عمل يمكنهم فيه أن يستخدموا ((عقولهم)).

وفي توسيع هذا المعنى، نستخدم أيضاً كلمة ((عقل)) لوصف الأفكار أو الانتباه. فإذا أقدم تلاميذ المدرسة، بصورة خرقاء، على القفز من النافذة، فإننا نطلب منهم أن ((يركزوا انتباههم على عملهم))؛ ويمكن أن نقول عن بنت إن ((تفكيرها منشغل كلياً بتحضيرات زفافها)).

وتعزى أحياناً قدرتنا على التذكر إلى العقل. فنتحدث عن عجزنا عن ((استذكار شيء ما)) أو نقول إن ((أحدهم ذكّر شخصاً ما بنا)). وكثيراً ما نجد أن شيئاً ما ((غاب عن بالنا)).

وتستخدم كلمة ((عقل)) غالباً في الإشارة إلى قدرات التخيل أكثر منها في الإشارة إلى قدرات التفكير والفهم. فيمكن أن نتحدث عن شيء ما ((بعين خيالنا))، وهي قدرة ذات فائدة كبيرة للناس المبدعين، أو قولنا لأحد الأصدقاء إن إحساسه بكره معلمه له ((إنك تتخيل ذلك فقط)).

وكذلك القرارت، والاهتمام، والتصميم كلها تُربَط لغوياً بالعقل. فيمكن أن نقول ((صممنا على الذهاب))، و (نحلم به)، و ((عزمنا على أن نذهب في إجازة)).

ومن الواضح أن كلمة ((عقل)) كلمة مفيدة ومتعددة الاستخدامات. فأين كنا سنكون دونها؟ والأكثر أهمية، أين كنا سنكون دون المَلَكات التي تشير إليها؟ الجواب لا يحتاج إلى تفكير، إننا، في أفضل الأحوال، سنكون في حالة ميت حي.

وكما ذكرناً آنفاً، فنحن نستخدم كلمة ((عقل)) في الإشارة إلى قدرات فكرية، أي القدرة على التفكير والاستدلال. وهكذا، نتحدث عن أحدهم بالقول إنه ((يحمل ميلاً

شديداً». ومن البديهي أن هذا لا يشير إلى الطبيعة الأخلاقية لتفكير أحدهم، بل إلى قدراته الاستثنائية في المحاكمة العقلية أو قدرته الفكرية. والاحتمال البديل هو أن الشخص موضوع حديثنا يتمتع «بعقل مرهف».

وفي هذا السياق، يمكن تجسيد كلمة «عقل». فيصبح العقل شخصاً كاملاً عندما نتحدث عن أحدهم بوصفه «واحداً من أعظم المفكرين في البلاد» أو نستخدم عددا من العبارات المماثلة. وتستخدم هذه الفكرة على سبيل الفكاهة في القول المعروف «المفكرون العظام متماثلون في التفكير، ويأتي الجواب عادة «البلهاء قلما يختلفون».

وفي هذا السياق أيضاً، تأتي كلمة «عقل» مرادفة لكلمة «دماغ». ولكن الكلمتين في كل السياقات لا تقبلان التغيير إطلاقاً. كل شيء إلا هذا. فنحن لا نتحدث عن إصابتنا «بتلف عقلي» في حادث أو بعد الخضوع لعملية جراحية قام بإجرائها «جراح دماغ Mind، شهير.

وعندما يتعلق الأمر بعبارات التعريف، فإننا نكون على أرضية أكثر موثوقية بالدماغ Brain. فكما استخدمنا الكلمة بشكل مجازي في السياق الذي ذكرناه آنفاً، يمكن بالطريقة نفسها أن نستخدم كلمة «عقل Mind»، فنصف أحدهم بأنه «واحد من أعظم العقول Brains في جيله» وأن أحدهم هو «العقل خلف مشروع أو منظمة». ومع ذلك، فإن الدماغ شيء محسوس على خلاف العقل.

فالدماغ يحتل موضعاً ثابتاً في الرأس. ويمكن للجراحين إخضاعه لعمليات جراحية، ويصوره أطباء الأشعة بأشعة X، ويمكن للأمراضيين استئصاله من القحف بعد الموت. فلا شك بوجوده. فنحن نعرف أنه موجود هناك.

من البديهي أن الروابط بين العقل والدماغ وثيقة جداً، وهي روابط لا يمكن فصمها في الواقع. فلولا وجود الدماغ الفيزيائي لما كان هناك عقل، ويمكن، إلى حد ما، اعتبار العقل كمثال مجرد للدماغ، كلاهما مهمان لعملية التفكير.

وتزداد معرفتنا باضطراد حول وظيفة الدماغ والطريقة التي يؤثر فيها على باقي الجسم، لأن الاهتمام العلمي يركز أكثر فأكثر على الخواص والنشاطات الفيزيائية للدماغ. وفي الحالات التي يبدو دائماً أنها حالة مرضية، سرعان ما تظهر المبررات الفيزيولوجية ولكن لا يمكن أبداً إثباتها. فعلى سبيل المثال، يسود الاعتقاد اليوم بأن قدرة الجسم على كبح المستويات الخاصة بألمه في بعض الحالات هي نتيجة لمواد كيميائية يطلقها الدماغ.

إن هذه المظاهر لقدرة الدماغ تلقي ضوءاً جديداً على الافتراضات القديمة وتؤيدها في عدد من الحالات. وهكذا يسود الاعتقاد في هذه الأيام باحتمال أن تكون بعض المواد التي

يطلقها الدماغ سبباً لبعض الحالات التي كان البعض حتى الآن يظن أنها من نتاج الخيال. وسنجد المزيد من المعلومات حول هذه المسألة في الفصل السابع، دور العقل في المرض.

وبمعنى آخر، إن بعض الموجودات العلمية الحديثة تبرر، كما يبدو، ما كان يُظَن لفترة طويلة أنه حالة مرضية. فقد كان الاعتقاد السائد منذ القدم أن العقل يمكن أن يلعب دوراً مهماً في حالة الصحة للجسم الفيزيائي. ويبدو أن العلم عازم على إثبات هذا، لولا ما يبدو اليوم، في بعض الحالات على الأقل، من أن الدماغ الفيزيائي هو الذي يمارس هذا التأثير أكثر من العقل المجرد.

لقد أتينا حتى الآن على دراسة كلمة «عقل»، ولكن ماذا عن كلمة «مادة»؟ يبدو أن هذه الكلمة أكثر صعوبة من نواح كثيرة.

وعلى غرار كلمة «عقل»، فإن كلمة مادة لها العديد من المعاني، ولكن واحداً فقط من تلك المعاني يتصل بسياقنا الحالي. وهو معنى غامض إلى حد ما كثيراً ما يتم التعبير عنه كنقيض لـ «العقل». فقاموس أكسفورد للمتعلمين المتقدمين يعرِّف المادة في السياق الحالي بوصفها «مادة فيزيائية تتناقض، بوجه عام، مع العقل أو الروح».

وفي الفصل السابع، دور العقل في المرض، سوف ندرس تفوق العقل على المادة عندما تكون المادة المعنية هي الجسم البشري. وقد تبين أنه في بعض الحالات ربما يجب إعادة كتابة الافتراضات التي سادت زمناً طويلاً بحيث يُنسَب الفضل ليس للعقل المجرد بل إلى الدماغ الفيزيائي وأن البحث العلمي ربما يتواصل في هذه العملية لإظهار الوظائف المتعددة للدماغ وقدرته.

يشعر العلماء، بشكل عام، بسعادة أكبر بالأشياء المادية. فهم يحبون أن يكون بمقدورهم إثبات الأشياء وأن يكون كل شيء واضحاً تماماً. ولهذا يميل معظمهم إلى التعامل مع الدماغ أكثر من التعامل مع العقل.

ولكن، هناك عدة حالات يمارس فيها العقل، كما يبدو، سلطة على بعض أشكال المادة، وهي مسألة لم يوضحها العلماء حتى الآن. ويشعر العديد من العلماء، لا بل ومن غير العلماء، بضيق شديد حول هذا ويتعاملون مع هذه الحالات غير المؤكدة لتفوق العقل على المادة بقدر كبير من الشك، إن لم يكن بالاستهزاء.

وواحدة من هذه الحالات هي الحركة النفسانية Psychokinesis، وهي القدرة غير المؤكدة للعقل البشري للتأثير على العالم الفيزيائي. وهذه السلطة المزعومة للعقل على الأشياء المادية يفترض أنها تؤثر في ليّ المعادن. ففي ليّ المعادن، يحاول الشخص الذي يظهر مهارته

بجعل قطعة من المعدن، كشوكة، أو ملعقة أو قضيب معدني، ينثني إما دون لمسه إطلاقاً أو دون ممارسة أي قوة فيزيائية عليه-أحياناً يربت عليه.

حظي ليّ المعادن في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي بقدر كبير من الاهتمام من قبل وسائل الإعلام، عندما راح يوري جيلَر يظهر مآثره في هذا المجال. ويبدو أن تلك المآثر تضمنت تصليح الساعات المكسورة دون لمسها إضافة إلى ليّ الشوكات. وعندما بدأ يظهر فنه على شاشة التلفزيون، زعم بعض المشاهدين أن الشوكات في مطابخهم راحت تنثني تلقائياً، وأن ساعات أجدادهم التي كانت متوقفة عن العمل منذ سنوات بدأت تتك.

كان ليوري جيلر العديد من المعجبين، ولكن كان له بالمقابل العديد من الخصوم. فقد احتج بعضهم بأنه لم يتم أبداً أختبار أو بحث قدراته بشكل مناسب، وذلك بسبب الإثارة التي مارستها وسائل الإعلام كافة. ونجد المزيد من المعلومات حول هذا وحول لي المعادن عموماً في الفصل السادس، الحركة النفسية.

حاول الكثيرون عزو سلطة جيلر الظاهرة على المعادن إلى خفة اليد، مع أن هذا، بحد ذاته، لا يفسر، كما يبدو، كل مآثره. ولكن المشككين واجهوا صعوبة أكبر تجاه عمل جون هاستد، الذي كان نفسه عالماً. كان هذا يمارس، بمساعدة عدد من الأتباع، تمارين تظهر تأثير قوة العقل على المعدن بطرق مثيرة إلى حد ما. ونجد المزيد من المعلومات حول هذا في الفصل السادس، ولكن واحداً من تمارينه كان يقضي بحمل شخص التجربة على جعل مجموعة من المشابك الورقية تتشابك على شكل عنقود عند وضعها ضمن كرة زجاجية.

وتم أيضاً تقديم البراهين في محاولة لإثبات أن العقل البشري يمكن أن يحرك الأشياء. ويقال إن الشخص الذي أظهر مهارة مميزة في هذا المجال كان امرأة روسية تدعى نيليا، أو نينا كولاغينا. ويقال إنها كانت إذا ركزت على بعض الأشياء الصغيرة إلى حد معتدل، فإن تلك الأشياء كانت تنزلق أو تتدحرج. وفي الحقيقة، يقال إنها لم تكن بحاجة حتى إلى التركيز. وقيل أيضاً إن موهبتها اكتشفت عندما كانت منشغلة بعمل آخر استثنائي، هو «قراءة» صحيفة بأصابعها. وكان يُفترَض في الأشياء القريبة من هذا النشاط أن تتحرك مبتعدة قليلاً. ونجد أيضاً المزيد من التفاصيل حول كولاغينا في الفصل السادس

وهناك حالة أخرى يفترض أيضاً أن تتضمن تحريك الأشياء. ويسود الظن اليوم بأنها نتيجة لنشاط ما في العقل البشري. واليوم، يزعم العديد من علماء علم النفس المُناظر[1]

١- نوع من علم النفس يبحث في التخاطر والكشف والاستشفاف -المترجم.

Parapsychology أن الأشباح الضَّاجَّة Poltergeisists التي كان يُظَن أنها شياطين، ثم أرواح موتى، ليست سوى نتيجة للنشاط الحركي النفساني الذي يقوم به العقل عند الشخص الذي يعيش في البيت المتأثر. ففي البيوت التي يُفتَرَض أنها تخضع لنشاط شبح ضاجٍّ، يُسمَع خبط خلف الجدران، وأشياء تطير عبر غرفة، وغيرها تتحرك من غرفة إلى أخرى وحجارة تُلقى على الجدران الخارجية. ونجد المزيد من المعلومات حول نشاط الأشباح الضَّاجة وأسبابها المفترضة في الفصل الأول، الأشباح الضاجة.

هذه هي إذاً بعض الطرق التي يقال إن العقل البشري قادر فيها على إحراز النصر على بعض أشكال المادة. ولكن، يُزعَم أن العقل البشري يتمتع أيضاً بقدرات أخرى غريبة. فيدَّعي العديد من الناس أن العقل يمكن أن يغادر الجسم ويعود إليه من جديد. والظن السائد هو أن هذا يحدث خلال ما يعرف بـ «التجارب خارج الجسم»، حيث يزعم أناس أنهم يعون تحليقهم إلى السقف، ونظرهم، من هناك، إلى أجسامهم في الأسفل. ونجد المزيد من المعلومات حول هذه المسألة في الفصل الخامس، التجارب من خارج الجسم، الذي نعالج فيه أيضاً ما يعرف بـ «تجارب قرب الموت».

ويدَّعي البعض أن العقل قادر ليس فقط على تحقيق التفوق على المعدن والأشياء، بل أيضاً على تحدي إدراكاتنا للزمان والمكان. فيقال إن بعض الناس يتمتعون بنوع من حاسة، غير الحواس الخمس المألوفة، تساعدهم على إدراك الأشياء التي لا يمكن للآخرين أن يدركوها. وتدعى هذه القدرة بالإدراك خارج الحس (Extrasensory Perception (ESP.

وهناك أشكال متعددة للإدراك المفترض خارج الحس، ويمكن تصنيف تلك الأشكال بعدة طرق. وفي هذا الكتاب، قمنا بتصنيفها إلى: التخاطر Telepathy، والإدراك المسبق Precognition والاستبصار Clairvoyance، وافردنا فصلاً لكل من هذه العناوين.

ففي التخاطر، يُفترَض وجود اتصال بن شخصين يمكن أن يكونا بعيدين عن بعضهما أميالاً كثيرة. فعلى سبيل المثال، يمكن أن يشعر أحدهم فجأة أن واحداً من أفراد الأسرة يواجه مشكلة، ويندفع إلى البيت المعني ليجد أن حريقاً شب فيه. ولكن، ما كل الحالات المزعومة مثيرة إلى هذا الحد، إنما أوردنا هذه الحالة على سبيل التوضيح.

وفي حالات الإدراك المسبق، يزعم أحدهم بأن لديه رؤيا، أو يساوره هاجس، أو أنه حلم بأن حادثاً ما سوف يقع في المستقبل، ثم يقع ذلك الحادث فعلاً، وكثيراً ما يكون مرتبطاً بالكوارث. فعلى سبيل المثال، سبق غرق السفينة تيتانيك العديد من حالات الإدراك المسبق

المفترض المرتبطة بذلك الحادث. ونجد المزيد من المعلومات حول هذا وحول كارثة إيبرفان في الفصل الثالث، الإدراك المسبق.

أما كلمة استبصار Clairvoyance فتستخدم بصورة فضفاضة تقريباً في الإشارة إلى قدرة نفسية بشكل عام، ويستخدم الاستبصار أحياناً بالمعنى نفسه الذي يستخدم فيه الإدراك المسبق. ونتعامل معه في هذا الكتاب على اعتباره فرعاً من الإدراك خارج الحس، لأنه كما يُزعَم هو القدرة على اكتشاف أو اكتساب المعلومات بواسطة ما غير الحواس الخمس.

وبسبب هذه القدرة المزعومة، فإن الناس كثيراً ما يستشيرون المستبصرين في مساعدتهم على تحديد مواضع أشخاص مفقودين. والأكثر بشاعة، أن يطلب البعض منهم المساعدة في اكتشاف جثث أشخاص ماتوا فعلاً. وأحياناً، يُطلَب منهم أيضاً المساعدة على اكتشاف الجرائم، ولا سيما جرائم القتل. وكثيراً مايأتي الطلب من قبل الأقرباء، ولكنه يأتي أحياناً من قبل الشرطة. فعلى سبيل المثال، طلبت شرطة بوسطن من مستبصر ألماني يدعى جيرار كرواسيه المساعدة على تقفي أثر المجرم الذي عرف فيما بعد بقاتل بوسطن. ونجد المزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع في الفصل الرابع، الاستبصار.

هناك العديد من الروايات حول المآثر المزعومة التي تباشرها فاعلية العقل البشري والتي تدعو إلى الدهشة. وليس هناك تعليل منطقي ممكن لبعض هذه المآثر كما نرى، وفي العديد من الحالات، لا نجد هناك إمكان للخداع أو الاحتيال لأنها تم اختبارها من قبل شهود مستقلين.

إن معلوماتنا، بشكل عام، قليلة حول هذه الحقول التي تقع خارج نطاق الاستقصاء العلمي -الخارق. ويظن البعض من المختصين بعلم النفس المُناظر أن هناك أمثلة للإدراك المسبق بين الناس العاديين أكثر مما هو معلن، ويعود السبب إلى أن هؤلاء الناس يخافون من أن يوصموا بالجنون، من ناحية، ومن ناحية أخرى، ربما إلى عدم معرفتهم الجهة التي يتحدثون إليها. ولتفادي الاحتمال الأخير، نجد في بريطانيا «مكتب الهواجس»، حيث يمكن للناس أن يسجلوا أي هواجس أو أي أحلام أو رؤى خطيرة حول التنبؤ بالمستقبل.

من المغري أن يميل المرء إلى الشك عند التعامل مع كل الحقول المفترضة التي تقع خارج نطاق الاستقصاء العلمي. فنحن دائماً نفضل رفض ما لا نفهمه أو ما نعجز عن فهمه، ولكن ذلك لا يعني أن ما لا نفهمه غير موجود لمجرد أننا لا نفهمه.

مازلنا بحاجة إلى المزيد من المعلومات والمزيد من البحث حول الحركة النفسانية والإدراك خارج الحس، ولكن هذا البحث يمكن أن يكون مكلفاً جداً في وقت يتزايد فيه

الطلب على الإمداد المالي، ثم إن الخارق لا يتمتع بالأهمية التي تتمتع بها الأشياء الأخرى. فعلى سبيل المثال، يمكن أن نحتاج إلى وقت ونفقة مهمتين، بلغة طاقم البحث والمعدات المطلوبة، لبحث ادعاء ما بأن بيتاً يخضع لنشاط روح ضاجّة. وبصرف النظر عن أي شيء آخر، فإن هناك عدداً مهماً من عمليات الاحتيال التي ترتكب في هذا الحقل، وغالباً من قبل أطفال يريدون شد الانتباه إليهم.

إن البحث حول الأشباح الضّاجّة يمكن أن يكون عملية بطيئة، لأن نشاطها يهدأ بوصول الباحث. فيقول الساخرون إن هذا يشير إلى حقيقة أن هذا النشاط غير موجود، ولكن بعض الباحثين يقولون إنهم لو يمكثون فترة طويلة بما يكفي، فإن النشاط سيستأنف.

كثيراً ما يعلق المهتمون في البحث حول بعض من جوانب الظاهرة الخارقة على حقيقة أنه يصعب إخضاع الإدراك خارج الحس أو الحركة النفسية للاختبار أو الحالات المختبرية، لأنه لا يمكن التعامل مع هذه الظاهرة كما نتعامل مع صنبور نفتحه ونغلقه متى نشاء. ومن الواضح أن هذا يتطلب المزيد من الوقت والمال، ويقلل من فرص حصولنا على المزيد من المعلومات في مستقبل قريب.

إن البحث الذي يشمل العقل والجسم البشري، والذي حقق تقدماً مهماً، ينطوي على فائدة مبيتة. فهذا البحث يرتبط بالصحة ولهذا فإنه يحتل أولوية أعلى.

وفي الوقت الحاضر، سوف يستمر جهلنا حول النشاط الممكن الذي يقع خارج نطاق الاستقصاء العلمي. ولا شك في أن هناك بعض الروايات حول الحوادث المفترضة الواقعة خارج ذلك النطاق التي لا نجد لها، كما يبدو، تعليلاً طبيعياً منطقياً، ويعود للفرد، بالدرجة الأولى، اتخاذ القرار حول هذه المسائل.



الفصل الأول

الأشباح الضاجة
Poltergeists

«شبح ضاج» Poltergeist، كلمة ألمانية معناها «الروح الكثيرة الضوضاء Noisy Spirit». هذه التسمية خاطئة لأنه، مع أننا، في الواقع، لا نعرف الكثير حول ما يسبب نشاط الأشباح الضّاجة، فإن الظن السائد هو أن هذا النشاط يأتي نتيجة لنوع من نشاط حركي نفسي خارق ويرتبط بالكائن البشري أكثر من ارتباطه بالأرواح.

واليوم، كثيراً ما يشير المختصون بعلم النفس المُناظِر إلى نشاط الأرواح الضاجة باعتبارها حركة نفسية تلقائية متكررة، وسميت كذلك بسبب المظهر المتكرر الذي يميز نشاط الأشباح الضاجة.

حظيت الأرواح الضاجة باهتمام كبير في القرن العشرين، ولا سيما في الجزء الأخير منه، ولكنها اليوم أبعد من أن تكون ظاهرة حديثة. فقد تراجعت كثيراً، في الواقع.

يشير جاكوب غْرِمّ في الميثولوجيا الألمانية إلى حالة ألمانية قديمة لنشاط روح ضاجة حدثت عام ٣٥٥ م. وتشير رواية غْرِمّ إلى بيت كان يتعرض للرمي بالحجارة والطرق على جدرانه.

بيرول

بدأ اهتمام العالم روبرت بويْل، الذي صاغ قانون بويل في الكيمياء وأحد مؤسسي الجمعية الملكية البريطانية، بالأشباح الضاجة عندما التقى في عام ١٦٤٢ وزيراً هوغنوتياً[1] يدعى فرنسيس بيرول، وكان بيته ضحية لنشاط شبح ضاج. وكان بيرول قد بدأ يكتب رواية للحوادث المرتبطة بالشبح الضاج بعد وقت قصير من حدوث النشاط الغريب، أي أن تلك الحوادث كانت ما تزال حية في ذهنه. وتأثر بويل كثيراً بالرواية ورتب من أجل ترجمتها إلى الانكليزية، ونشرها.

١- بروستانتي فرنسي

يبدو أن أول إشارة للنشاط غير العادي كانت موجهة إلى خادمة بيرول وزوجته، وكان بيرول نفسه يميل إلى الشك في روايتيهما. ولكنه سرعان ما شهد النشاط بنفسه وذكر أنه يسمع طرقاً وأشياء تلقى. وأخيراً، بدأت الحجارة تلقى على البيت ليلاً ونهاراً، إلى حد كان سكان البيت يواجهون معه صعوبة كبيرة في الشعور بالراحة.

أثرت نشاطات الشبح الضاج على حياة أعضاء الأسرة ولكن الخادمة كانت الهدف الرئيس لنشاطه. فعلى سبيل المثال، كانت تجد الأسرَّة مشعثة بعد أن تكون قد رتبتها.

كان شبح بيرول يُظهر، بعدد من الطرق، سلوكاً نموذجياً، وقد أدرجنا أدناه بعضاً من نشاطه الذي يترافق بنشاط شبح ضاج، ولكن كانت هناك سمة غير عادية ترافق ذلك النشاط. وتمثلت تلك السمة بحقيقة أن صوتاً بشرياً كان يُصدر كلمات غير مفهومة. وعند وجود نشاط صوتي، كان عادة يتخذ شكل القباع أو بضع كلمات غير مفهومة كالنقيق، ولكن يبدو أن شبح بيرول كان ثرثاراً إلى حد استثنائي بالنسبة لشبح ضاج.

على الرغم من أن نشاط الأشباح الضاجة يغطي عدة مئات من السنوات والتشابه الملحوظ في نوع النشاط الذي يحدث عند الظن بوجود شبح ضاج في العديد من البلدان، فإن هذه النشاطات لا تحدث كلها أحياناً، ولكنها تكون نموذجية لتجربة الأشباح الضاجة.

التكرارية

كما تشير عبارة-الحركة النفسية التلقائية المتكررة-التي اعتاد الكثير من المختصين بعلم النفس المُناظر على استخدامها لوصف نشاط الأشباح الضاجة المزعومة، فإن هناك عادة تكرارية ملحوظة ترافق ذلك النشاط. وكثيراً ما يبدأ نشاط الشبح الضاج بحادث أو اثنين معزولين ظاهرياً، ولكنه يتصاعد، غالباً مع الانتقام. وهو عادة نشاط مكثف من حيث النوع، ولكنه قصير تقريباً، حيث يستمر لبضعة أسابيع أو أشهر.

وفي كلا المظهرين، يختلف البيت الذي يخضع لنشاط شبح ضاج عن ذاك الذي يخضع للانتياب[1] Haunting. فالأرواح المزعومة التي تقدم دليلاً متصوراً على «وجودها» في بيت ما أقل تكراراً بكثير من الأشباح الضاجة، ولكنها تفعل ذلك على مدى فترة زمنية أطول. فقد ذُكِر أن بعض الأرواح المفترضة تظهر في بعض البيوت على مدى عدة مئات من السنين، مع أنها يمكن ألا تظهر سوى مرة واحدة كل بضع سنوات.

١- ملازمة روح لمكان ما -المترجم.

الارتباط بشخص واحد

عند الادعاء بوجود نشاط شبحي في بيت ما، فإن هذا النشاط يتركز عادة على شخص واحد بشكل خاص. وقد يبدو أن الشبح يوجه نشاطه نحو أعضاء الأسرة كافة أو عدد منهم، ولكن كثيراً ما يكون هناك شخص واحد بعينه هدفاً لأكثر تلك النشاطات سوءاً، ولكن هذا يستغرق وقتاً لكي يتضح. وكما رأينا في حالة بيرول، حيث كانت الخادمة هي الهدف الرئيس لنشاط الشبح، فإن هذا يوجه جهده الرئيس غالباً إلى امرأة شابة أو فتاة يافعة.

على أي حال، كانت هذه هي الحالة المألوفة. ولكن المختصين المعاصرين بعلم النفس المُناظر يظنون أن هناك إشارات في عصرنا تدل على بعض التغيير. فيقدّر وليم رول، وكان مديراً لمؤسسة البحث النفساني في كارولاينا الشمالية، أن ٨٠٪ من النشاط الشبحي كان حتى هذا القرن مركزاً على الإناث، ولكن الاهتمام في هذا القرن انتشر بالتساوي بين الجنسين.

وعلى عكس الأرواح المزعومة، التي ترتبط بالمكان لأنها لا تتبع الأسرة إذا انتقلت من البيت المسكون إلى بيت في مكان آخر بل تبقى حيث هي، فإن الشبح الضاج يرتبط بشخص بعينه كما يبدو. فإذا كان في غمرة نشاط وانتقل الشخص الهدف بعيداً، فإن الشبح الضاج ينتقل معه.

يوليو

حالة معروفة تماماً، لأنها موثقة بعناية، ولأنها أظهرت ميل النشاط الشبحي إلى متابعة الشخص إذا غادر المركز الأصلي لذلك النشاط. كان يوليو، وهو لاجئ كوبي في التاسعة عشرة من عمره، يعمل في مخزن للسلع في ميامي. وبعد إجراء جانب من البحث في مكان عمله، تبين أنه كان هدفاً لنشاط شبح ضاج. فطُلِب منه أن يذهب إلى مركز البحث في دورهام في كارولاينا الشمالية، حيث يقوم الباحثون بإجراء بحوث إضافية، ولا سيما حول نوع الشخصية التي كثيراً ما يلازمها النشاط الشبحي.

عندما كان يوليو في ميامي، كان هناك دليل على أن أواني للزينة وزجاجية تتعرض للكسر. وعندما ذهب إلى مركز البحث في دورهام، بدا وكأن النشاط الشبحي يلاحقه إلى هناك، فقد سقطت مزهرية زينية كانت موضوعة على طاولة في الغرفة قرب المدخل على الأرض وانكسرت.

أوردنا حالة يوليو هنا لأنها تثبت أن النشاط الشبحي، ولا سيما عندما يكون في أقصى عدوانيته، يميل إلى تعقب هدف نشاطه إذا ابتعد في خضم نشاطه. فهو يرتبط بالشخص أكثر مما يرتبط بالمكان.

ولكن الحالة نفسها مثيرة ومن أكثر الحالات شهرة لعدة أسباب. ولهذا فهي تستحق أن نسرد قصتها كاملة من جديد-أو، على الأقل، جزءاً منها.

في عام ١٩٦٧، طلب صاحب مخزن للسلع في ميامي، آلفن لا وبهايم، مساعدة الشرطة بسبب عدد المكسورات الذي يحدث في متجره دون تعليل-كان في المبنى الكثير من مواد الزينة والهدايا التذكارية والأواني الزجاجية. في البداية، كان يظن أن هذه المكسورات سببها الإهمال بين موظفيه الذين يشرفون على عملية الشحن ولكن المعدل الصافي للتلف جعله يشك بوجود شبح يعمل. أما ما يمكن أن تفعله شرطة ميامي تجاه الشبح فلم يكن معروفاً. ومع ذلك، طلب مساعدتهم، فجاؤوا، ربما على مضض.

وحدث أن سمع وليم رول، الذي كان مديراً للبحث في مؤسسة البحث النفساني في كارولاينا الشمالية، وواحداً ممن يتمتعون بقدر كبير من الخبرة في البحث الشبحي، فقرر القيام بالبحث. في البداية، كان الشبح يتهيب من التعريف بوجوده مع وجود باحث، وهي عادة أثبتتها أشباح أخرى في ظروف مماثلة.

ولكن نشاطاً كبيراً راح يظهر في النهاية بوجود رول، وغالباً عندما يكون يوليو تحت بصره لكي لا تكون هناك فرصة للخداع من قبله. لا ريب في أن شيئاً ما كان يحدث، ولكن يبدو بالتأكيد أن يوليو لم يكن يكسر الأشياء عمداً.

قام رول بترتيب مجموعة من الأشياء على الرفوف في كل أنحاء المخزن، وأطلق عليها اسم الأشياء الهدف لأنه وضعها بطريقة تجعله يعرف ما إذا كانت قد تحركت. وكان من بين هذه الأشياء منفضة سجائر على شكل تمساح، وضعها على رف في قسم من المستودع كان سابقاً مسرحاً لنشاط شبحي كبير.

وضع يوليو جرس بقرة أمام المنفضة، لأن الجرس كان قد تحرك عدة مرات بالنشاط المحتمل للشبح، وهكذا ربما يكون مصدراً لشد الانتباه.

ذكر رول أنه كان يراقب يوليو وهو يتحدث إلى أحدهم في غرفة التخزين وتحول الحديث إلى جدل، وفي هذا الوقت بالذات سُمع صوت تحطم المنفضة التمساح خلفه. واصل رول مراقبة حركة الأشياء الأخرى أو سقوطها واكتشف أن الشبح ينشط فقط بوجود يوليو.

كان فضول رول كبيراً مما دفعه إلى الطلب من يوليو أن يرافقه إلى مركز بحثه في دورهام، في كارولاينا الشمالية. وقد رأينا كيف أن النشاط الشبحي لاحق يوليو إلى هناك.

اهتم الباحثون، بشكل خاص، بيوليو نفسه لأنهم كانوا يريدون أن يعرفوا ما إذا كان هناك شيء ما في شخصيته يمكن أن يؤهبه لنشاط شبحي. كان يبدو عليه الانزعاج دون سبب واضح وكان يقوم بعمله بصورة طبيعية، باستثناء حقيقة الاستنتاج بأنه كان مركزاً لنشاط شبحي.

ولكن، عندما تم إخضاعه لاختبار نفسي واختبار الشخصية، تبيّن لاثنين من الأخصائيين النفسيين أنه شخص سلبي هادىء ظاهرياً، يجد صعوبة كبيرة في التعبير عن مشاعره الحقيقية، وهكذا كان يخفي مشاعر دون واعية للعدوان والإحباط. وكان باللاوعي يشعر بالخصومة والعداء تجاه كل من هم في السلطة، لأن علاقاته كانت سيئة جداً مع زوجة أبيه التي طردته من البيت قبل فترة.

توصل الباحثون إلى افتراض أن كل هذه العدوانية المكبوتة تجاه السلطة عبرت عن نفسها في شكل طاقة حركية نفسية، هي مصدر النشاط الشبحي.

الطرق

إن السلسلة المرتفعة من الدقات التي تصدر من جدران البيت نموذجية جداً للنشاط الشبحي. ويمكن أن تأتي الدقات مرتفعة جداً وتكون غالباً مقدمة لفورة من النشاط الشبحي الصاخب.

حركة الأشياء

إن واحدة من أكثر الظواهر نموذجية المرافقة للأشباح الضاجة هي حركة الأشياء في البيت. وتتفاوت هذه الحركة من حيث المدى والسرعة.

فبعض الأشياء تنقذف بقوة كبيرة عبر الغرفة مما يشكل خطراً على سكان البيت. وبعضها يتحرك ببطء. وتتحرك بعض الأشياء أحياناً بخط مستقيم وأحياناً تسلك خطاً متعرجاً.

ومن الشائع جداً أن تسقط الأشياء عن الرفوف من تلقاء نفسها. وتتحطم الكؤس على الأرض، وكذلك القوارير وأحياناً تنفجر هذه القوارير.

الحركة البعيدة

هذا شكل مميز لحركة الأشياء، وهو شائع جداً في بيت يفترض أنه مسكون بشبح ضاج. ويشير إلى نقل الأشياء من قسم إلى قسم آخر في البيت. وأحياناً تظهر من جديد في مكان آخر في البيت، ولكنها تختفي أحياناً فترة من الوقت وأحياناً تختفي بشكل دائم. ومن الشائع جداً أن تظهر مصادفة في مكان غير متوقع.

إلقاء الحجارة

السمة الأخرى للنشاط الشبحي التي يتم الحديث عنها بانتظام على مدى السنوات هي إلقاء الحجارة. والأكثر شيوعاً أن تلقى الحجارة على الجدران الخارجية للبيت وسطحه، وهو نشاط صاخب لا يوفر السلام للأسرة.

في الوقت الذي كانت فيه أسرة بيرول تعاني من تجربتها المكربة، ساد الظن بأن الشبح الضاج كان نوعاً من شيطان. وبقي هذا الظن سائداً حتى وقت متأخر قليلاً في القرن الثامن عشر، عندما أصبح بيت صمويل ويزلي بؤرة للنشاط الشبحي نحو نهاية كانون الأول عام ١٧١٦ وبداية ١٧١٧.

لو تم إثبات وجود الشبح الضاج، لكان، في الواقع، شيطاناً شجاعاً، لأن صمويل ويزلي كان كاهناً. وهو والد جون ويزلي الذي أسس الكنيسة النظامية فيما بعد.

أسرة فوكس وطرق روتشستر

صمدت النظرية القائلة إن الشبح الضاج شيطان تقريباً حتى منتصف القرن التاسع عشر عندما ازداد الاهتمام بالظاهرة النفسية. وهذا التزايد للاهتمام كان جزئياً نتيجة لبعض النشاط الشبحي في هايدسفيل، في نيويورك عام ١٨٤٨.

تركزت بؤرة النشاط الشبحي على أسرة فوكس التي كانت قد انتقلت تواً إلى البيت. وبعد استقرار الأسرة في البيت بوقت قليل، بدأت البنتان تسمعان طرقاً يصدر من الجدران. وظن الوالدان أنه أياً كان الطارق، فإنه لا بد أن يكون لديه نوع من الذكاء، لأن طرقاً مقابلاً كان يأتي رداً عندما كانت البنتان تقومان بالطرق.

وشارك الجيران وبدؤوا نوعاً من الاتصال البدائي مع الطارق بواسطة الطرق، وهو نوع من شيفرة ابتكروها. وأصيب أحد الجيران بالدهشة لأن الطارق كان قادراً على الإجابة على

أسئلة حول حياته الشخصية. وفيما بعد، ساد الظن بأن القوة المسؤولة عن هذا يجب أن تكون قد اكتسبت المعلومات بشكل من التخاطر.

جذب «طرق روتشستر»، كما عُرف آنذاك، إلى البيت عدداً كبيراً من الناس، وتكوّن استنتاج يفيد بأن الطّرق والمعلومات التي يفترض أنه يقدمها إنما تنبعث من أرواح أناس موتى. وهذه الحالة مشوقة، بشكل خاص، لأنها أدت إلى نشوء الاعتقاد بالروحانية[1]، الذي انتشر بسرعة خلال باقي أنحاء أمريكا ودفع العديد من الناس إلى تنصيب أنفسهم كوسطاء. وفي الواقع، بلغت الروحانية نسباً وبائية تقريباً.

وفيما بعد، امتهنت أخوات فوكس حرفة الوساطة وقد أدينتا بتهمة الخداع. ومع ذلك، تبيّن أن الطرق الأساسي على جدران منزل الأسرة كان حقيقياً، فقد أكده عدد كبير من المستقلين وغير المتحيزين.

كان شبح فوكس مهماً لأن الناس، منذ ذلك الحين، راحوا يميلون إلى اعتبار الشبح روح شخص متوفى أكثر من كونه شيطاناً، كما كانوا يعتقدون سابقاً. وكان مهماً أيضاً لأنه دفع الناس إلى الدراسات العلمية حول الظواهر النفسية أو الواقعة خارج نطاق البحث العلمي في أمريكا والدراسة العلمية حول الأشباح الضاجة.

اصطدم الباحثون حول الأشباح الضاجة بالمشكلة التي اكتشفها الباحثون الآخرون حول الظواهر الخارقة. فالحقيقة هي أن النشاط الخارق ليس صنبور ماء يفتحه الباحث عندما يشاء. فعندما وصل الباحثون للمباشرة بدراسة النشاط الشبحي العدواني الذي أعلنت عنه الأسرة، فإن الشبح لم يستأنف نشاطه حتى غادر الباحثون. واعتبرت ادعاءات أعضاء الأسرة من قبيل الخيال أو الاحتيال.

بؤرة النشاط الشبحي

أدرك المهتمون بالأشباح الضاجة منذ وقت مبكر جداً أنه كثيراً ما تكون هناك علاقة بين الشبح وشخص يافع في البيت. وقبل القرن الماضي، كانوا يعتقدون أن هذا الشخص فتاة مراهقة عادة. ولكن المختصين بعلم النفس المُناظر بدؤوا تدريجياً يشتبهون في أن الشبح الضاج ليس، في الواقع، روحاً بل نوعاً من نتاج العقل البشري، ربما عقل اليافع الذي كان بؤرة النشاط.

١- الاعتقاد بأن الحقيقة كلها روحية -المترجم.

ساد الافتراض بأن الأشباح الضاجة هي نتيجة لنوع من الخداع، ولا سيما عندما كان الشبح لا يمرّ على الباحث بالظهور. وساد افتراض آخر هو أن الشخص اليافع يمارس عملية الخداع لكي يشد الانتباه إلى نفسه.

في الحالات التي استبعد فيها الخداع ويبدت البؤرة شخصاً يافعاً، توصل المختصون بعلم النفس المُناظر إلى الاستنتاج بأن نوعاً من النشاط المحموم الذي يظهره الشبح المفترض، كالطرق ورمي الأشياء في نوبة غضب ظاهر، كان مماثلاً لشيء من سلوك اليافعين حول سن البلوغ عندما تكون انفعالاتهم في حالة فورة. ويميز هذا النمط من السلوك كل من جرب كونه والداً لطفل في مطلع العشرينيات من عمره.

تقول النظرية إن الطفل إذا لجأ إلى كبت نوع من العواطف والسلوك مما هو نموذجي لمن هم في عمر البلوغ، فإنه يمكن أن يستخدم الحركة النفسية دون وعي ليجد طريقة أخرى للتعبير عن مشاعره المكبوتة واحباطته. وتمضي النظرية فتضيف: هكذا تولد الأشباح، إنها غالباً أفعال صبيانية.

وعندما تابع البحث الحديث النظرية التي قالت إن عقل الفتى في البيت يمكن أن يكون سبب النشاط الشبحي بواسطة نوع من عملية الحركة النفسية، بدأ بعض الباحثين يشتبهون بوجود نوع من عنصر جنسي مشارك، ببساطة لأن الفتيات المعنيات كن كلهن في حدود سن البلوغ. واعتقدوا أن التوترات الجنسية التي تعتمل داخل جسم الفتاة في هذه السن هي المسؤولة عن النشاط الحركي النفساني.

ولكن البحث الحديث في أوروبا وأمريكا أظهر أن هناك تغييراً في عمر الناس الذين يكونون عادة بؤرة للنشاط الشبحي. ويبدو اليوم أن العمر الوسطي للشخص الذي يتعرض لهذا النشاط هو عشرون عاماً، في حين كان سابقاً ستة عشر عاماً. يجب أخذ هذا بالحسبان إضافة إلى حقيقة أن عمر البلوغ في أوروبا وأمريكا قد هبط. وهكذا، قد لا يكون البلوغ والتوترات الجنسية في صلب النشاط الشبحي بأي حال.

أما التغيير الغريب الآخر الذي حدث فقد ذكرناه تواً. فالنشاط الشبحي، الذي كان يتركز عادة على فتاة يافعة أو امرأة شابة، لا يُظهر اليوم، في أوروبا وأمريكا، أي شكل من الميل الجنسي. ويبدو أن الحالات تتوزع بالتساوي بين الإناث والذكور. ومن الطبيعي ألا يتأثر هذا بنظرية البلوغ، لأن الصبيان، كالبنات، يتأثرون بالتوترات الجنسية في البلوغ، باستثناء ما كان يلاحظ أحياناً من أن النشاط الشبحي كان أحياناً يرتبط بطريقة ما ببداية الدورة الشهرية.

ورأى بعض الباحثين أن شكلاً ما من مرض عقلي يمكن أن يكون في صلب العلاقة الظاهرة بين اليافعين والنشاط الشبحي. ولكن قد يكون صعباً معرفة ما إذا كان طفل ما يعاني من شكل ما من اضطراب عقلي عن طريق إجراء فحص له بعد أن يكون النشاط الشبحي قد بدأ، لأن الطفل يكون في هذا الوقت في حالة كرب شديد. والسجلات الطبية التي تظهر قصة الطفل قبل بدء النشاط الشبحي يمكن أن تكون مقنعة أكثر.

تكمن العوامل التي تولّد، دون وعي، الحركة النفسية التي تؤدي إلى نشاط شبحي في مجالات غير البلوغ أو المرض العقلي. فقد ذكرنا آنفاً في دراستنا لحالة يوليو تحت عنوان الارتباط بشخص واحد، كيف يمكن لكبت العواطف أن يضع الناس في حالة يصبح النشاط الشبحي معها محتملاً.

فرجينيا كامبل

رأينا في دراستنا لحالة يوليو كيف يمكن أن تؤثر الشخصية وربما رد الفعل على تجارب الحياة على الشباب بطريقة يعتقد الباحثون معها أنها يمكن أن تؤدي إلى تنشيط شبح ضاج. ويبدو أن حالة فرجينيا كامبل تناسب القائمة.

كانت فرجينيا تعيش في بلدة صغيرة في ساوشي في اسكتلندة مع أخيها وزوجته. وفي عام ١٩٦٠، عندما كانت في الحادية عشرة، بدأت الأسرة تواجه نشاطاً شبحياً كان يتركز، كما يبدو، على فرجينيا.

كانت في ذلك الوقت تواجه مرحلة البلوغ، ولكنها كانت أيضاً تعيسة جداً. فقد كانت أصلاً تعيش في آيرلندا حيث كان تشعر بالوحدة مع رفيقها الأقرب، كلبها توبي. وكان أبوها قد اتخذ قراراً بالعيش في انكلترا، فأُرسلت فرجينيا لكي تعيش مع أخيها ريثما تتم تسوية الأمور.

كان النشاط الشبحي، الذي كان يتضمن طرقاً مرتفعاً، وحركة للأشياء وسباحتها في الهواء، سيئاً بما يكفي في البيت، ولكنه لاحقها إلى المدرسة. فقد زعم أحد المعلمين في المدرسة أن غطاء مقعد فرجينيا حاول الارتفاع وأن مقعداً شاغراً خلفها بدأ يسبح في الهواء.

ربما كانت فرجينيا تعيسة ولكنها كانت بالتأكيد مغضبة تقريباً بسبب قرار الانتقال من بيتها في آيرلندا ومحبطة لأنها كانت عاجزة عن فعل شيء حيال ذلك. لا يمكن أن تكون مشاعر الاستياء عندها موجهة ضد والديها. ولذلك، رأى الدكتور روغو في كتابه

التجربة الشبحية أنه مع عدم وجود شخص تحمله فرجينيا المسؤولية، أطلقت العنان لمشاعرها العدائية بصورة حركية نفسية فخلقت شبحاً ضاجاً.

كثيراً ما يُظهر اليافعون أنهم بؤرة للنشاط الشبحي. ولكن هذا ليس صحيحاً دائماً. فالبحث في هذه الأيام يشير إلى أن عدداً متزايداً من المسنين، بعمر السبعين وما فوق، يصبحون بؤرة لهذا النشاط. ومع ذلك، ليس بالضرورة أن يكون الناس في طريق العمر، لأن بعض الباحثين ربطوا النشاط الشبحي بنساء إياسيات، ومن المعروف أن هذا النشاط يتضمن الدم أحياناً.

حالة ونستون

فكرة أن يتضمن النشاط الشبحي استخدام الدم فكرة مزعجة بالنسبة للأشخاص المفرطي الحساسية. فالحياة في ظل تجربة تقع خارج نطاق الاستقصاء العلمي وتتضمن كميات كبيرة من دم شخص آخر مجهول لا بد أنها حياة مخيفة.

ذُكِر أن هذه الواقعة حدثت في أتلانتا، في ولاية جيورجيا عام ١٩٨٧، عندما وجد السيد وليم ونستون وزوجته بيتهما «مطرطشاً» بالدم، كما وجدا جزءاً من الأرضية مغطاة به. وقال كلا الزوجين أن أياً منهما لم ينزف.

وأكد التحليل الطبي للدم الموجود حقيقة أنه ليس من دم السيد ونستون أو زوجته. فقد كانت زمرتهما الدموية من نمط A، بينما كانت زمرة الدم المرشوش من نمط O.

إنها رواية مرعبة بشكل خاص. فمن الواضح أن شيئاً ما خاصاً كان يجري في البيت، وربما كان شبحاً مع الاختلاف. ولحسن الحظ أن هذه الرواية ليست نموذجية للنشاط الشبحي بشكل عام.

حل جيوفيزيائي

يمكن للناس أن يفكروا بأسباب النشاط الشبحي وينسبوه إلى نوع من حركة نفسية، ولكن ما من أحد يعرف فعلاً ما يسببه. وقد أشار غاي لامبرت، لا سيما، إلى أن هناك سبباً منطقياً يكمن خلف النشاط الشبحي المفترض وأن هذا النشاط يحدث جيوفيزيائياً.

حاول غاي لامبرت أن يثبت أن قنوات مائية تحت الأرض يمكن أن تمارس تأثيراً يشبه النشاط الشبحي إذا كانت تجري تحت أساسات المباني. فعندما يتم إنشاء الغطاء العلوي للماء في أي من هذه القنوات، فإن المبنى يمكن أن يخضع لقوى دفع رعشية. ويجادل في أن قوى

الدفع هذه يمكن أن تسبب ضجيجاً في المبنى فوق القنوات الذي يمكن الظن بأنه طرق ويمكن أيضاً أن يكون قوياً بما يكفي لتحريك الأشياء في الغرفة.

ولكن الناس لم يقتنعوا بتعليلات غاي لامبرت، وقيل إنه لو كان ما يقوله صحيحاً، لكانت الفيضانات وحركات المد والجزر العالية سببت زيادة في معدل وقوع تشويشات من النوع الذي يحدثه النشاط الشبحي. ولكن يبدو أن الحالة ليست على هذا النحو.

ويحتج لامبرت بأن النشاط الشبحي كان في المناطق الساحلية والمدِّيَّة أكبر منه في المناطق الأخرى، الأمر الذي يؤكد صحة نظريته. ولكن هذه المناطق تميل إلى أن تكون أكثر كثافة سكانية.

إضافة إلى ذلك، حصل باحثان آخران هما: الدكتور آلان غولد، وهو عالم نفساني من جامعة نوتنغهام، وتوني كورنيل، الذي كان أكثر خبرة في البحث الشبحي، لأغراض البحث على بعض البيوت المدرَّجة وكان قد تم التخطيط لتخريبها فيما بعد، مع أنها كانت سليمة تماماً من الناحية البنائية. واستخدما معدات تنتج قوة فيزيائية أكبر بكثير، من حيث الشدة، مما تسببه القنوات المائية.

حدثت اهتزازات قوية جداً في البيوت، ولكن لم تُلحَظ حركة للأشياء من النوع الذي تسببها الأشباح كما يفترض. وبدا كما لو أن الشبح قد عاش لكي يقاتل يوماً آخر.

خلاصة:

كما هي الحال مع الكثير من النشاط الذي يقع خارج نطاق الاستقصاء العلمي، فإن الحقيقة حول الأشباح الضاجة هي أننا لسنا متأكدين حتى الآن ما الذي يولِّدها. وقد تم بصورة جيدة إلى حد ما توثيق الوقائع النموذجية التي ترافقها وقدمت نظريات متعددة فيما يتعلق بسببها.

وقد تغيرت تلك النظريات بمرور الزمن، فقد انتقلنا من الشياطين إلى أرواح الموتى، إلى الأطفال المراهقين المشوشين جنسياً، إلى أي واحد يكون في حالة عدوانية مكبوتة. واليوم، يبدو من المتفق عليه أن العقل يمارس سلطته على حياتنا إلى حد يسبب معه كرباً وانزعاجاً كبيرين على شكل أشباح ضاجَّة.

الفصل الثاني

التخاطـــر[1]

Telepathy

انتشرت عبر التاريخ أخبار كثيرة حول حوادث كما شاع العديد من الادعاءات حول وقائع تشمل العقل ولم يكن بالإمكان تعليلها بلغة النظريات المُسَلَّم بها اليوم، ولا سيما العلمية منها. وتُصنَّف هذه الحوادث عادة كحوادث تقع خارج نطاق الاستقصاء العلمي، وهي عبارة غامضة تقريباً تُعرَّف بأشكال مختلفة كالحوادث «الخارقة للطبيعة» أو «الشاذة» أو التي «لا يمكن تفسيرها بقوانين الطبيعة أو العقل».

وكما تشير هذه التعاريف، فإن كلمة «خارق» كلمة فضفاضة. ويمكن أن يدخل تحت مظلتها مجموعة مختلطة من كل ما يستعصي على استيعاب حواسنا العادية. والتخاطر واحد من هذه المجموعة.

التخاطر فرع من إدراك لا يعتمد على الحواس المعروفة أو كما يسمى الإدراك خارج الحس Extrasensory Perception (ESP)، وهو القدرة المزعومة على الحصول على معلومات حول الناس، أو الحوادث أو الأشياء في مكان أو زمان بعيد عن الوقت الحاضر، وذلك بواسطة ما تزال مجهولة حتى اليوم بالنسبة للعلم. وهناك عدة وجوه لما هو خارق يمكن تصنيفها في خانة الإدراك خارج الحس، ولكن التخاطر هو الوجه الوحيد الذي يمكن القول إنه يتضمن إدراكاً خارج الحس بين شخص وشخص.

وكلمة تخاطر Telepathy وفقاً لقاموس تشامبرز الانكليزي تعني «الاتصال بين عقل وعقل عن غير طريق القنوات المعروفة للحواس». وبمعنى آخر، يبدو من جديد أن العقل يمارس قدراً جيداً من القدرة، وهي قدرة لا يمكن فهمها.

١- اتصال عقل بآخر بطريقة تختلف عن الطرق العادية للاتصال والتخاطب -المترجم.

الشـك:

هنـاك شـك كـبير حـول التخـاطر كمـا هـي الحـال، في الواقـع، مـع كـل مـا يـرتبط بالإدراك خارج الحس أو بما هـو خـارق بوجـه عـام. ولا شـك في أن هنـاك عـدداً مـن الأشـياء الـتي يجب وضعها في الاعتبار قبل أن يصدق المرء العديد من الروايات والنوادر المحكية المنقولة حـول الإدراك خارج الحس أو التخاطر.

إن أول شيء يجب أن نضعه في اعتبارنا هو أنه لا يمكـن التعويل علـى الـذاكرة البـشرية لأنهـا عرضـة للخطـأ بـصورة أساسـية. فـالحوادث الـتي يتناقلها النـاس علـى اعتبارهـا صـحيحة يمكـن أن تتضمن بذرة الحقيقة، ولكن، في أفضل الأحوال، لا يمكـن تـذكرها تمامـاً، وفي أسوأ الأحوال، يمكن أن تخضع لقدر كبير من المبالغة، أو الزخرفة أو حتى الكـذب.

والـشيء الثـاني هـو أن معظمنـا، مهمـا كنـا معتزين بأنفسنا، يميـل إلى التـأثر بأفكـار الآخرين. فنحن قادرون على رؤية أشياء غير موجـودة إذا كنـا نريـد رؤيتهـا بقـدر مناسب أوَ إذا أوحى أحدهم إلينا بأنـه يجب أن يكـون بمقـدورنا رؤيتها. وإذا قـال كـل واحـد إنه يَخبُّر شـيئاً خارقاً، فلماذا لا يحق لنا أن نقول مثله؟

ولـسوء الحـظ، يجـب أخـيراً أن نـضع الخـداع في اعتبارنـا. وهـذا غـير محتمـل في روايـة قـصصية يعرضـها عـضو عـادي مـن عامـة النـاس. فـشخص كهـذا يمكـن أن يـضلل ولكـن لا يحتمل أن يمـارس الخـداع. ومـع ذلـك، لا ينبغـي اسـتبعاد احتمـال الخـداع الـذي يـرتبط بالأعمـال المسرحية أو وسائل الإعلام، مع أن بعضها يمكن تسميتها خداعاً، وهي تسمية أكثر دقة.

وفي حالة التخاطر المفترض، يجب أن نـضع في اعتبـارنـا أيضاً عامل قابليـة التنبـؤ عنـدما نتـساءل عـن مـدى الثقـة الـذي يجـب أن نمحـضه لروايـة منقولـة حـول واقعـة تخاطريـة. وهنـاك، طبعاً، صعوبة كبيرة جداً في تحديد الحادث الذي يمكن، أو لا يمكن، التنبؤ به. وكثيرا مـا يتوجب رسم خط دقيق بين الحادثين.

عامل القدرة على التنبؤ:

حالة بالغة الأهمية تصلح لإثبات العامل المحتمل للقـدرة علـى التنبـؤ. فـإذا بـدا أن أحـدهم يتلقى معلومات إدراكية خارج الحس حول موت أحد الأقربـاء، سـواء عـن طريق نـوع مـن رسـالة تـؤدي إلى تأكيـد المـوت أو عـن طريق رؤيـا، فإنـه يجـب الأخـذ بالحسبان عمـر ذلـك القريـب وظروفه.

فإذا كان القريب المذكور شاباً، ومعافى في ذروة الحالة، فيزيائياً وعقلياً، فإن المعلومات غير المؤكدة المستمدة من الإدراك خارج الحس أو التخاطري ستكون مفاجئة إلى حد أبعد وأقل قابلية للتنبؤ مما لو كان القريب المعني ضعيفاً طاعناً في السن ووفاته متوقعة منذ زمن. إن الإحساس، أو الرسالة أو الرؤيا ستكون مفاجئة جداً في كل الظروف، ولكن لن تكون كذلك إذا كان موت الشخص المعني متوقعاً في المستقبل القريب وكان متلقي الرسالة يعرف هذا. فالقريب المتوفى الآن ربما كان في ذهن متلقي معلومات الإدراك خارج الحس.

الشخصية:

يجب أيضاً أن نضع في الحسبان، إلى حد ما، شخصية المتلقي الذي يدّعي الرسالة. فالشخص الذي يساوره قلق شديد وخوف دائم من بعد أعضاء أسرته عنه، ويتخيل أن خطراً أو كارثة تحدق بهم من كل صوب أقل مدعاة للتصديق من شخص آخر لا يعاني من هذه الحالة. إن شخصاً كهذا يمكن أن يدعي بأنه يشعر بأن شيئاً ما مزعجاً حدث لأحد أقربائه، ولكن هذا الشعور قد يخالجه كل ليلة-وربما معظم اليوم-دون وقوع أي شيء مشؤوم.

اختبار البطاقات:

تم ابتكار اختبارات لتجريب وتقييم معقولية التخاطر. وأقدم تلك الاختبارات هو تجربة الاختبار بالبطاقات التي تستخدم خمس بطاقات خاصة. طوّر هذا الاختبار جوزيف بنكس رينيه الذي استهل الاهتمام الحديث بعلم النفس المُناظر، وبالإدراك خارج الحس، بشكل خاص، وذلك أثناء عمله في ثلاثينيات القرن الماضي في جامعة ديوك في كارولاينا الشمالية.

كان على أشخاص تجربته في الاختبار الأصلي أن يخمنوا تسلسل البطاقات التي تظهر، وذلك بعد خلطها تماماً للتأكد من عشوائية ترتيبها وصعوبة التنبؤ بها، على أمل استبعاد احتمال أن يأتي تخمين الأشخاص صحيحاً عن طريق الاستدلال المنطقي. وأظهرت النتائج أن عدداً كبيراً من الأشخاص استطاع التنبؤ بصورة صحيحة بتسلسل البطاقات أكثر مما يتوقع عن طريق المصادفة.

شكك بعض الباحثين بموجودات رينيه. فقد شعر هؤلاء بأن رينيه ومساعديه كانوا تواقين إلى إثبات وجود الإدرك خارج الحس والتخاطر إلى درجة ربما يكونون قد أثروا فيها،

دون وعـي، علـى أشـخاص التجربـة في اختيـار البطاقـات، وذلـك بتقـديمهم، دون وعـي، بعـض الإشارات والتلميحات الحساسة. ثم إن حقيقة أنهم لم يستطيعوا إعادة استخراج نتائج رينيه في مختبراتهم الخاصة، حملت باحثين آخرين على التشكيك بنتائجه.

شتيبانيك:

ولكن باحثاً تشيكياً، هو ميلان ريزل، باشر في بداية ستينيات القرن الماضي بتجربة التنويم المغناطيسي في محاولة لتدريب أو تقوية الأشخاص الذين يتمتعون بقدرات استثنائية كالتخاطر. واجه ريزل، في مجرى هذا البحث، رجلاً يدعى بيفل شتيبانيك لم يثبت جدارته للتنويم المغناطيسي ولكنه بدأ يظهر مستويات استثنائية جداً من الإدراك خارج الحس في تجارب ريزل، والتي اعتمدت أيضاً على اختيار البطاقات، ثم في التجارب مع مجموعة من الباحثين الآخرين.

في هذه الأثناء، كان لمعظم الناس العاديين رأيهم الخاص حول الإدراك خارج الحس والتخاطر. فالبعض يرفض هذه المسألة جملة دون فكرة أخرى، بينما يعتقد آخرون بشكل ما لانتقال المعلومات غير الوسائل العادية، وغيرهم غير متأكد. ولكن الدراسة تظهر أن معظم الناس يحملون نوعاً من الإيمان.

تكمن الصعوبة في محاولة إثبات حيوية شخص ما أو، بمعنى آخر، قدراته التخاطرية في أنه قلما يستطيع استحضار موهبته ساعة يشاء. وقد دأب جورج جلبرت موراي (١٨٦٦-١٩٥٧)، العالم اليوناني المعروف، على محاولة إظهار قدرته التخاطرية ومحاولة تحسينها عن طريق التسلية بأنواع مختلفة من ألعاب التخمين مع العائلة. وقد قامت جمعية البحث النفساني بنشر نتائج خمسين سنة من هذه الألعاب. ومن تحليل هذه النتائج، ظهر أن موراي حقق الدقة فيما يقرب من ثلث التخمينات.

وقد أظهرت الدراسات أن معظم العلماء لا يؤمنون، كما يبدو، بشيء اسمه الإدراك خارج الحس أو التخاطر. وربما يعود هذا إلى أن تدريبهم بالذات يعلمهم أن يصدقوا فقط ما يمكن إثباته بشكل قاطع، ومن الصعب التعامل مع التخاطر على هذا النحو. إضافة إلى ذلك، يبدو، بالتعريف تقريباً، أن كل الظواهر الخارقة تخالف القوانين المعروفة للعلم والطبيعة. ومع ذلك، يسود الظن أن عدد العلماء المنفتحين أصبح أكثر من ذي قبل، مع أن بعضهم ما يزال متحاملاً مما يجعله بعيداً عن الانفتاح.

قراءة الأفكار:

فعلت العروض المسرحية الكثير للتشكيك في الإدراك خارج الحس أو التخاطر. فالكثير من الناس على قناعة بأن الممثل يحاول خداع جمهور المستمعين أو المشاهدين عن طريق مجموعة من الحيل. ويشعرون انه يمكن أن يقوم بنوع من الدراسة الأولية حول حياة الناس الذين يخطط لمقابلتهم لكي تبدو رؤاه أستثنائية وخارقة أيضاً. وهناك من يشعر بأن الممثل الذي سيحاول «قراءة الأفكار» يمكن أن يكون له زملاء يمارسون التجوال بين المجموعة التي تضم الأشخاص المقصودين لاكتشاف شيء ما حولهم وحول حياتهم، ثم يقومون بنقلها إلى «قارئ الأفكار» قبل أن يشرع في التنفيذ.

ربما ينطوي هذا الشك على شيء من الحقيقة. فلا شك في أن معظم الممثلين، كسَحَرَة المسرح، الذين يرغبون في التأثير على المشاهدين بمهاراتهم الخارقة المفترضة، يمتلكون بعض الحيل الجاهزة للاستخدام وقت الحاجة. فهم، حتى لو كانوا يتمتعون بموهبة التخاطر، فإنهم لن يستطيعوا إظهارها في كل حين. والتخاطر، كالأشكال الأخرى من الإدراك خارج الحس، يبدو متناقضاً في التطبيق. وسواء كان ممثل خاص يتمتع بأي قدرة تخاطرية أم لا، فإن الصحيح، لسوء الحظ، هو أن الشكوك التي ارتبطت بـ «قارئي الأفكار» المسرحيين أثرت على إدراك بعض الناس حول التخاطر بصورة عامة. وعلى الرغم من ذلك، هناك بعض الحالات المنقولة المهمة حول التخاطر.

صاغ كلمة «تخاطر»، كما يقال، فريدريك مايرز، مفتش المدارس، والشاعر وأحد مؤسسي جمعية البحث النفساني، التي تأسست عام ١٨٨٢. وقد عرَّف الكلمة بأنها «نقل انطباعات من أي نوع من عقل إلى آخر بشكل مستقل عن القنوات المعروفة للحواس».

دون Donne:

إن الكثير من الأمثلة المنقولة حول التخاطر ترتبط بنوع من أزمة أو كارثة. ويعود أحد أقدم هذه الأمثلة إلى ما قبل مايرز بعدة مئات من السنوات ويتعلق بالشاعر جون دون (١٥٧٢-١٦٣١). واستناداً إلى السير إسحق والتون، فإن هذا الشاعر كانت له تجربة مع ما أصبح يسمى فيما بعد بالتخاطر، وذلك عندما كان في بعثة ديبلوماسية في فرنسا عام ١٦١٠. فعندما وصل إلى فرنسا، أخبر السفير الانكليزي أنه رأى رؤيا مزعجة حول زوجته، التي بقيت في البيت في انكلترا، لأنها كانت حاملاً في ذلك الوقت.

فقد زعم دون أنه رأى زوجته مرتين تمر به في الغرفة وشعرها متدل على كتفيها وتحمل بين ذراعيها طفلاً ميتاً. ومع أن السير روبرت دروري، السفير الانكليزي، كان مرتاباً تقريباً، فإنه قرر إرسال مراسل إلى بيت دون للتأكد فيما إذا كان حدث شيء لزوجته.

عاد المراسل إلى فرنسا بعد أسبوعين تقريباً وأخبر دون بأن زوجته مريضة وتعيسة جداً، لأنها كابدت مخاضاً طويلاً أدى إلى ولادة الطفل ميتاً. وبعد التدقيق تبيّن أن الوقت الذي ادعى فيه دون أنه رأى زوجته تحمل طفلا ميتاً هو الوقت نفسه التي كانت في المخاض وولدت الطفل الميت.

كاسرر:

وهناك مثال آخر مسجل لاستجابات تخاطرية مفترضة لأزمات ترتبط بأرنست كاسرر، أستاذ الفلسفة في جامعة هامبورغ من عام ١٩١٩ حتى تولى هتلر السلطة عام ١٩٣٣. ويبدو أنه كان حساساً جداً للحالة الصحية لابنته وهي بعيدة عنه.

وتحدثت آنا كاسرر حول أن أباها اتصل بها هاتفياً إلى مدرستها الداخلية في منتصف الليل في عدة مناسبات لأنه كان يشعر بأنها ليست على ما يرام. وفي كل هذه المناسبات كان يصادف أن تكون آنا مريضة وفي المكان المخصص للمرضى في المدرسة. كان هذا النوع من الهاتف الليلي شاذاً جداً لأنه لم يصادف أن اتصل وكانت ابنته على ما يرام.

وتسرد آنا قصة مماثلة حول زيارة والدها لها مرة عندما كانت طالبة في برلين. فبعد أن شاركا معاً في حفلة مسائية، غادر الوالد صباح اليوم التالي بواسطة القطار عائداً إلى هامبورغ، ولكنه نزل من القطار في أول موقف قبل أن يصل إليها. واتصل هاتفياً بابنته في شقتها لأن شعوراً مفاجئاً خالجه بأنها ليست على ما يرام، فقيل له بأنها نقلت إلى المستشفى. وعندما اتصل بالمستشفى، علم بأنها أدخلت بسبب إصابتها بنزيف داخلي بدأ بعد مغادرته المحطة.

تلك أمثلة أوردناها لتخاطر مفترض، وقد تم نشرها رسمياً- في حالة دون من قبل كاتب سيرته، وفي حالة كاسرر من قبل ابنته إلى باحث نفسي. ولكن، لا شك في أن معظمنا يواجه، في سياق الحياة اليومية، نوادر سواء سردت علينا مباشرة أو بصورة غير مباشرة، يدعي فيها أناس أنهم جربوا نوعاً من رسالة، أو رؤيا أو شعور تخاطري حول واقعة عاثرة في حياة شخص آخر، وكثيراً ما يكون قريباً وثيقاً.

أمثلة للتخاطر

قد لا يكون سوء الحظ بالضرورة حادثاً تراجيدياً، بل يمكن أن يكون حادثاً تافهاً. فعلى سبيل المثال، كان سلوك إحدى الأمهات يبدو غريباً، لأنها كانت تظهر في المدرسة الابتدائية التي تضم أطفالها، مباشرة عندما تكون المدرسة على وشك إغلاق أبوابها قبل انتهاء الدوام، لسبب أو لآخر، وذلك لكي تعود بأطفالها إلى البيت. وكانت حوادث الإغلاق المبكر هذه غير عادية، وتحدث فقط استجابة لبعض الأزمات النادرة نسبياً. ولم تكن هذه الأزمات نادرة فقط بل متنوعة أيضاً، ولهذا لم يكن بإمكان الأم، في الواقع، أن تتنبأ بها.

في إحدى المرات، كانت هناك عاصفة ثلجية سيئة في قسم من المدينة حيث توجد المدرسة، مع أن العاصفة لم تشمل القسم من المدينة الذي تعمل فيه الأم. ومرة كان قد حدث عطل كامل في نظام التدفئة المركزية. ومرة أخرى، حدث حريق صغير. وقد وقعت هذه الحوادث على مدى ست سنوات تقريباً، وهي المدة التي واظب فيها الأطفال على المدرسة. ولكن الأم لم تظهر في المدرسة يوماً قبل انتهاء الدوام، ولم يحدث أن اتصل بها أحد مقدماً.

وعندما سئلت حول قدرتها غير العادية على الظهور بهذه الطريقة استجابة لأزمة مدرسية، قالت إنها كانت فقط تعرف بأن شيئاً ما لا يسير على ما يرام فتترك عملها لتقود سيارتها إلى المدرسة. حتى أنها لم تتوقف لتتأكد من قلقها بواسطة الهاتف.

وهناك روايات قصصية حول التخاطر المفترض أكثر خطورة أو أكثر مأساوية، ربما لأن أمثلة الإدراك خارج الحس في هذا المجال تميل إلى الرسوخ في ذاكرة الناس. فهم يمكن بسهولة أن ينسوا الحوادث الأقل إثارة.

فنحن نسمع عادة أن أناساً استيقظوا في منتصف الليل وهم على قناعة بأن قريباً لهم تعرض لحادث أليم، فقط ليكتشفوا وقتها أو في صباح اليوم التالي صحة ما توقعوه وأن أحد أقربائهم أو أصدقائهم قد تعرض لإصابة بالغة. والناس في هذه الظروف، يظنون أنهم رأوا رؤيا حول الشخص المصاب، وآخرون لا يدعون هذا.

فعلى سبيل المثال، أم تعيش ابنتها في أمريكا انسحبت مرة إلى السرير مبكرة. ولكنها استيقظت مذعورة نحو منتصف الليل وهي على قناعة بأن ابنتها تعرضت لخطر كبير. ولكن هذا الرعب أعقبه مباشرة إحساس كبير بالراحة.

اتصلت بابنتها هاتفياً، فلم تجدها في البيت، مع أنه يجب أن تكون قد عادت من عملها في ذلك الوقت-هناك طبعاً اختلاف في التوقيت بين بريطانيا وأمريكا. تركت الأم رسالة

لابنتها، طلبت منها فيها أن تتصل بها هاتفياً فور عودتها، مع أن الليل كان في منتصفه في بريطانيا.

وعندما اتصلت البنت بأمها، أخبرتها بأنها كانت، ومجموعة من صديقاتها، تقف عند زاوية أحد الشارع، فاندفعت سيارة بعنف نحوهن. وأحدق بهن خطر شديد، فحاولن الهرب من طريق السيارة المسرعة. نجحت البنت التي نحن بصددها في النجاة، ولكن إحدى صديقاتها قتلت بصورة مأساوية.

لا يمكن طبعاً التأكد من صحة هذه القصة، حتى لو كان المرء يعرف الفريقين المعنيين. ويكفي أن نعرف أن الأم والبنت، كلتاهما واقعيتان إلى حد استثنائي، ولم يسبق لهما أن تعرضتا لتجربة كهذه. كانت الأم معتادة على سفر ابنتها عبر العالم ولم تكن من النوع العصابي الذي يستهلك الوقت خوفاً مما يمكن أن يحدث لها.

وتتحدث أم أخرى وتقول إنها كانت عصر أحد الأيام تجلس في البيت بانتظار عودة طفلها الذي كان بعمر المدرسة الابتدائية بحافلة المدرسة. وفجأة، استحوذ عليها إحساس مزعج بأن طفلها في خطر. فاندفعت إلى سيارتها وقادتها في طريق قصير كانت تعرف أن حافلة المدرسة تسلكه. وعندما رأت الحافلة على الطرق ليس بعيداً عن المدرسة أشارت إليها لكي تتوقف، واكتشفت أن طفلها غير موجود فيها ولم يعرف أحد من أصدقائه سبب عدم وجوده.

عادت إلى سيارتها مذعورة وقادتها باتجاه المدرسة. فرأت طفلها عند مقصورة الهاتف قرب أبواب المدرسة. كان يتحدث إلى رجل سرعان ما تركه عندما رأى الأم قادمة نحوهما.

بدا الطفل مضطرباً جداً، ومر وقت قبل أن يتمكن من الكلام حول ما حدث بطريقة هادئة إلى حد معقول. وعندما بدأ يتحدث قال إن أحد المعلمين تسبب في تأخيره عندما طلب منه أن يمضي لمهمة بسيطة، دون أن يدرك أنه سيتسبب في تأخيره عن موعد انطلاق الحافلة.

وعندما اكتشف أن الحافلة تركته وغادرت، اتجه صوب مقصورة الهاتف عند بوابة المدرسة لكي يتصل بالبيت لشرح الوضع. وفي الوقت الذي وصل إلى المقصورة جاءه رجل وسأله عن مشكلته. وطلب من الصبي ألا يخاف، وقال إنه يعرف أمه، ولذلك فهو مستعد لنقله إلى البيت بسيارته التي قال إنها تقف في الجوار.

وفي تلك اللحظة بالذات، وصلت الأم وجرى كل شي على ما يرام. وقال الصبي إنه على الرغم من رفضه المتواصل لعرض الرجل وقوله له إن أمه أوصته بعدم الركوب مع الغرباء، فإنه كان يحاول إقناعه بأنه صديق للعائلة، وأنه ليس غريباً، وأن حظر العائلة لا ينطبق عليه.

كانت لهذه الرواية حول التخاطر المفترض خاتمة سعيدة بالنسبة للشخص الذي يدعي بأنه يخبُر الإدراك خارج الحس، ولكن هذا لا يصح بالنسبة لكل واحد. فبعد أشهر قليلة من هذه الحادثة، اختطف صبي من قرب أبواب المدرسة وضرب بقسوة واغتصب جنسياً.

ما كل الروايات التي يسردها الناس العاديون حول التخاطر المفترض تنتهي نهاية سعيدة، حتى بالنسبة للناس الأكثر اهتماماً. فقد تحدثت زوجة يعمل زوجها تاجراً وسافر في رحلة عمل كيف أنها رأت صورته بشكل مفاجئ في وقت مبكر صباح احد الأيام وقد أحاط بها اللهب وكان يصرخ في رعب.

لم تستطع أن تدرك الأمر على حقيقته، ولكنها كانت رؤيا غير عادية أبداً حيث كان الزوج بعيداً لأن خطط عمله كانت تخضع غالباً لتغيير مفاجئ. والحريق الوحيد الذي تحدثت عنه كان حريقاً مهلكاً في بيت خاص في بلدة تبعد أميالاً عن المكان الذي كان يقصده، وعلى أي حال كان يقيم في الفندق.

عندما توصلت إلى هذا التحليل، استرخت مع أن مبررها كان ضعيفاً. ففي الحقيقة، كان زوجها هو الذي قتل. فقد أخبرها مدير مبيعاته أن خطة رحلته قد تغيرت. كان عليه أن ينضم إلى زميل له في بلدته بقصد الإعداد لإنشاء مخيم كبير للمبيعات لمنتجاتهما ضد منافس جديد.

كان الوقت ضيقاً، فسافر دون أن يخبر زوجته بتغيير الخطة، بنية أن يتصل بها هاتفياً صباح اليوم التالي. وأقنعه زميله بأن يقضي الليل معه ومع عائلته بدلاً من أن يذهب إلى الفندق. ولسوء الحظ اندلع حريق في البيت، وعلى الرغم من نجاة أعضاء الأسرة، فإن ضيفهم مات في الحريق.

من الصعب معرفة كيف يمكن تعليل روايات كهذه. ففي هذه الحالة الخاصة، شهد الأصدقاء على حقيقة أن المرأة التي ادعت تجربتها التخاطرية لم تكن، بالتأكيد، تتمتع بخيال خصب على نحو مميز وأنها كانت متعودة على سفر زوجها عبر البلد لأوقات طويلة حتى أنه لم يكن يخامرها خوف في غير محله.

في حالات كالحالة التي وصفناها آنفاً من المهم، إذا كان يجب تصديقها، أن يكون هناك دليل ما على أن الشخص الذي يدعي تجربة تخاطرية قد أخبر عدة أشخاص حول تجربته قبل الكشف عن المأساة الحقيقية. وبخلاف ذلك، فإن الحادثة بالكامل يمكن بسهولة أن تتشوش في ذهن الشخص الذي يعاني من حزن كبير. وعلى العكس، إذا كان أحدهم يتمتع بخيال خصب جداً حول أن عضواً من العائلة في خطر، فإنه من غير المحتمل أن يتسكع هنا

وهناك ليخبر الناس بذلك، ولكنه سوف يندفع بسرعة في محاولة ليتأكد من أن قريبه على ما يرام.

وهناك حالة أخرى للتخاطر المفترض عرفها أناس عاديون جداً يرتبطون بصلة قربى مع امرأة هي اليوم في الخمسينيات من عمرها. وهي ما تزال تحمل ذكرى حية لتجربة تخاطرية تزعم أنها حدثت قبل ثلاثين سنة عندما كانت شابة.

تقول إنها استيقظت لغير ما سبب واضح في منتصف الليل ولاحت لها رؤيا بأن أباها يتمدد وعيناه مغمضتان ويبدو شاحب اللون. وخالجها شعور عميق بالموت وتكونت لديها القناعة بأنه ميت وليس نائماً.

قفزت من سريرها ومضت لتتصل هاتفياً بأبيها الذي يقيم في الجهة الأخرى من البلاد، على أمل الاطمئنان. كان أبوها يعيش وحيداً، وعندما لم تتلق جواباً اتصلت بأحد جيرانه، مع أن الوقت كان متأخراً.

كان جيرانه يعرفونه جيداً وقالوا لها إنه لم يخبرهم عن أي خطط تقضي بأن يكون بعيداً عن البيت، كما كان يفعل عادة. واهتموا بشكل كاف بما قالته لهم حتى أنهم راحوا يحاولون الاتصال به بالهاتف. وعندما لم يتلقوا جواباً، ذهبوا إلى البيت وقرعوا جرس الباب ولم يتلقوا جواباً أيضاً.

كان لديهم مفتاح للحالات الطارئة واستخدموه حالاً للدخول إلى البيت. بحثوا في أنحاء البيت فوجدوا جارهم ميتاً في سريره. وأثبت الفحص فيما بعد أنه مات من حالة قلبية لم يسبق تشخيصها في حياته.

في تلك الأثناء كانت المرأة التي ادعت التجربة التخاطرية في مطلع العشرينيات من عمرها وكان أبوها في مطلع أربعينياته. وهكذا لم يكن موته متوقعاً ولم يكن لديها ما يبرر خوفها على صحته. كما أنها لم تكن تعرف، ولم يكن هو أيضاً، يعرف بحالته القلبية.

من الصعب دحض مثل هذه الروايات التي تشمل أناساً آخرين. ولكن كثيراً ما يكون الزمن الذي يستمع فيه المرء فعلاً للرواية، سواء من الشخص الذي يدعي التجربة أو من أشخاص آخرين، بعيداً عن الزمن الفعلي للتجربة، ويكون الناس المعنيون إما بعيدين عن بعضهم بعضاً أو في عداد الأموات. ولهذا يكون من الصعب استقصاء الحالة.

إن هذا النوع من الرواية التي تميل إلى الانتقال من عضو إلى آخر في الأسرة تصبح بمرور الزمن جزءاً من قصة شعبية للأسرة. وكثيراً ما تكون هناك بذرة للحقيقة في القصة الأصلية ولكنها بمرور الزمن تخضع للزخرفة.

الألم:

إن الروايات التخاطرية المزعومة تتضمن الألم أحياناً. فعلى سبيل المثال، ادعى رجل بترت ذراع أخيه اليمنى من المرفق بأنه عانى هو نفسه من ألم مبرح في الناحية حول مرفق ذراعه اليمنى في الوقت نفسه حيث اكتشف فيما بعد أن أخاه تعرض لحادث مؤلم.

وتحدث رجل آخر حول أنه كان يجلس خلف الطاولة في مكتبه عندما شعر فجأة بألم شديد في كاحله وخطرت في ذهنه أفكار حول أخيه الأصغر. ووفقاً لروايته، كان الألم لا يحتمل واكتشف فيما بعد أنه حدث في ساعة من اليوم نفسه الذي بترت فيه قدم أخيه إثر حادث سير مروع.

ومن جديد نقول إنه من الصعب إخضاع مثل هذه الروايات لأي اختبار صارم، ولا سيما إذا نقلت بعد وقوع الحادث. وهذه هي الصعوبة التي تواجه العلماء في سبيل تصديق هذه الروايات عندما يدور الجدل حول ما إذا كا هناك فعلاً شيء يدعى التخاطر أو الإدراك خارج الحس. وعلى العكس، هناك الكثير من الروايات التي ترتبط بتجارب تخاطرية مزعومة يصعب على المرء ألا يصدق أن ليس هناك شيء على الإطلاق.

بوغاي:

يبدو أحياناً أن هناك نوعاً من دليل مادي يعزز التجربة التخاطرية المزعومة. وظهر هذا في حالة ترتبط بـ ليزلي بوغاي، وهي حالة تمت دراستها من أجل مسلسل تلفزيوني باسم عالم آرثر كلارك للقوى الخفية.

في هذه الحالة لتخاطر مزعوم، كان ليزلي بوغاي قد حط مع السلاح الجوي الملكي البريطاني في مصر عام ١٩٤٧. واستيقظ في إحدى الليالي وهو يشعر بألم مبرح في يده مع تركزه على إصبع واحدة على وجه الخصوص. لم يكن هناك سبب واضح لهذا الألم. ولم تكن هناك علامة، أو تورم أو أي إشارة إلى خمج. ومع ذلك كان الألم شديداً جداً ولم يهدأ إلا بعد وقت ليس بالقصير.

كان بوغاي وزوجته الموجودة في انكلترا يكتبان إلى بعضهما يومياً، كما كانت عادة أعضاء القوات المسلحة الذين يخدمون وراء البحار في تلك الأيام، مع الميل إلى ذكر معظم الأشياء التي تحدث في الحياة اليومية. وفي حينه، ذكر بوغاي لزوجته ما يعانيه من كرب وألم بأصبعه.

وفي هذه الأثناء، كانت زوجته تكتب له لتخبره حول حادث وقع لها في المصنع الذي تعمل فيه. ويبدو أن قطعة معدنية صغيرة اخترقت إصبعها واستقرت داخله. وكان الجرح يسبب لها ألماً شديداً. فقد أنتن وكان يجب بضعه من قبل الطبيب مما سبب لها المزيد من الألم لفترة من الزمن قبل أن يبدأ بالالتئام.

تقاطعت رسالتها هذه إلى زوجها مع رسالته التي يحدثها فيها عن تجربته الغريبة. واكتشفا أن وقت عمليتها الجراحية تزامن مع الوقت الذي كان يجتاز فيه تجربته المؤلمة وأن ألمه غير المعلل كان في الإصبع نفسها وفي اليد نفسها.

إنها رواية غريبة ومن المفترض أن تكتسب بعض الثقة من الرسائل. تلك الرسائل التي وفرت نوعاً من دليل مادي، ولكن من غير المعروف ما إذا كان تم الاحتفاظ بها أم لا، وما إذا كانت ما تزال موجودة أم لا.

إن واحداً من الأمور المهمة حول هذه الحالة هو أن الظروف لم تكن مأساوية بأي حال، وفي الواقع، لم ترق إلى مرتبة الأزمة. لا شك أن إصبع زوجة بوغاي كان مؤلماً جداً ولكنها لم تكن في خطر حقيقي. وربما أنها ذكرت إصابتها لزوجها لمجرد أنها كانت تكتب له كل يوم وكانت معتادة على إخباره بما يجري لها. ويصح الشيء نفسه بالنسبة للزوج. وفي ظروف أخرى، ربما ما كان ليزعج نفسه بذكر هذا الحادث الغريب.

ولهذا، يمكن أن يكون هناك تجارب تخاطرية مفترضة فيما يتعلق بألم بسيط نسبياً أكثر من تلك التي نسمع بها فعلاً. ونحن أكثر ميلاً إلى سماع الحوادث المثيرة، ولا سيما تلك التي تسبب إصابة كبيرة أو موتاً.

يشير الأقرباء أحياناً إلى تجارب تخاطرية مفترضة عندما يخضع أقرباء لهم لعمل جراحي، مع أنهم غالباً لا يعرفون شيئاً عن هذه الجراحة مسبقاً. تحدثت امرأة حول أنها بدأت فجأة تشعر بعد ظهر أحد الأيام بألم حاد إلى حد مبرِّح في ظهرها.

كانت هذه المرأة تعرف أن والدها في المستشفى يخضع لاختبارات تشخيصية حول ألم في الظهر، ولكن لم تكن لديها فكرة حول أنه سيخضع لجراحة في محاولة لمعالجة المشكلة. ولم تسأل عندما زارته آخر مرة أو عندما تحدثت مع أمها آخر مرة. واتضح أن قرار إجراء العملية قد اتخذ حديثاً وأن أمها احتفظت بتلك الحقيقة لنفسها لكي لا تزعج ابنتها لأنها كانت على وشك تقديم فحوصها الجامعية.

التوائم والتخاطر

من المعروف أن هناك علاقة خاصة تربط بين التوائم، ولا سيما التوائم الطبيقة[1]. ولكن، على الرغم من عدم وجود برهان حقيقي على أن التوائم يَخبُرون إدراكاً خارج الحس أو يتصلون عن طريق التخاطر، فإنه من المتفق عليه بوجه عام أن التوائم يتمتعون، كما يبدو، بحس معمق للمشاركة الوجدانية، وهم حساسون بدرجة استثنائية لأفكار ومشاعر بعضهم بعضاً، ولا شك في أن بعض النوادر التي يجري تداولها حول تجربة التوائم تشبه بعضاً من تلك النوادر التي ترتبط بالتجارب التخاطرية المفترضة لدى الناس الآخرين.

زعمت امرأة توأم أنها شعرت في أحد الأيام بحرارة وألم هائلين ثم خَبُرت فراغاً أسود. وسرعان ما اكتشفت أن توأمها الطبيق قتل في الوقت نفسه بحادث تحطم طائرة.

وتركز قصة أقل مأساوية على رجل كان قد عانى يوماً من وجع سني شديد في واحد من أسنانه الخلفية في الفك العلوي. حدد له طبيب الأسنان موعداً إسعافياً، وكانت السن تؤلمه جداً، ولكن الطبيب لم يجد شيئاً واستنتج أن الألم يمكن أن يكون ناتجاً عن التهاب الجيب. وبعد ذلك انصرف الألم فجأة. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، سمع من توأمه الذي كان يعيش في البلدة القريبة أنه خلع في ذلك اليوم إحدى أسنانه الخلفية في الفك العلوي. وكانت السن نفسها.

وهناك العديد من النوادر التي تتعلق بالتوائم والحمل. ولكن من غير الشائع إطلاقاً أن تدعي توأم بأنها تشعر بآلام المخاض عندما تكون أختها البعيدة عنها في حالة مخاض. فمن الواضح أن التوأم غير الحامل تعرف أن توأمها الحامل حامل فعلاً وربما يمكنها بسهولة أن تتنبأ بتاريخ ولادتها ولكن روايات كهذه حول تجارب تخاطرية مزعومة يتم تداولها في حالات حدوث ولادات خديجة ولا يمكن للتوأم الأخرى أن تتنبأ بوقت المخاض.

إن المشاركة الوجدانية المعمقة الموجودة بين توأمين، نجدها أحياناً عند أناس آخرين، وإن يكن بدرجة أقل. وهذا النوع من آلام المخاض التعاطفية المزعومة التي ذكرناها أعلاه في حالة التوائم يدعيه أحياناً زوج بعيد عن زوجته أثناء ولادتها. ونكرر القول إنه يمكن أن يحتج البعض بأن الزوج يمكن أن يتنبأ بالموعد التقريبي لولادة زوجته، ولكن هناك نوادر حول أزواج عانوا من الآلام في وقت دخلت زوجاتهم في حالة مخاض مبكر أو إجهاض.

١- نقول توأمان طبيقان أو مثيلان إذا كانا من بيضة واحدة -المترجم.

هذا النوع من القدرة على الاتصال على مستوى غير مستوى الحواس الخمس العادية لا يبعث على الدهشة، لا سيما بين توامين وُهبوا علاقة ذات طبيعة غير عادية. ولكن هناك حالات معلنة لتجارب تخاطرية مزعومة تحدث بين شخصين لا يعرف فيها الذي يخبُر التجربة الشخص الآخر بصورة جيدة ولا تربطه معه روابط عاطفية قوية.

كاساس:

واحدة من هذه الدعاوى تتعلق بامرأة أسبانية عجوز اسمها إيزابيلا كاساس. وفي كتابه، أسرار العقل، يصف روبين ستون كيف ذهبت في صباح أحد الأيام عام ١٩٨٠ إلى مخفر الشرطة المحلية في برشلونة وأخبرتهم بأنها رات حلماً مخيفاً حول أحد جيرانها. كان الجار في الحلم مذعوراً وقال لها أن شخصاً ما سوف يقتله وإياها.

كان جارها، رافاييل بيريز، رئيس طهاة. لم تره منذ عشرة أيام مع أنها كانت تراه كل يوم. وعلى غير العادة، كانت قد تلقت منه رسالة قصيرة سلمت لها باليد بعد بضعة أيام من آخر مرة رأته فيها، قال فيها إنه سيغيب عن البيت لعدة أسابيع. وهي الآن تُعد المسألة غير عادية، وإن كانت اعتبرتها في حينه عادية لأن الناس يسافرون لسبب أو لآخر.

وقرر المسؤولون في المخفر الذهاب إلى شقة بيريز لتقصي المسألة، ربما لأن العجوز كانت مضطربة جداً. وأخيراً وجدوه مقيداً في غرفة المرافق على سطح البيت الذي يسكن فيه وإيزابيلا. لقد تركه اللصوص على تلك الحال بعد أن سرقوا دفتر شيكاته وأجبروه على توقيع شيكات لهم بكل مدخراته. وقالوا إنهم عندما يصرفون كل الشيكات ويحصلون على المال بالكامل، سيعودون ليقتلوه مع العجوز، ولكن عندما عادوا وجدوا الشرطة بانتظارهم، فاعتقلتهم.

لا شك في أن الحالة كانت ملحة جداً، حالة هددت الحياة الخاصة لإيزابيلا. ومع أن صداقة عميقة تربط بينها وبين بيريز كجارين، إلا أنه لم تكن بينهما روابط دموية ولا حتى روابط عاطفية حقيقية.

التخاطر البدائي

هناك من يعتقد أن التخاطر جزء طبيعي من الحياة، ولكن طبيعة الحياة الغربية جعلتنا نفقد موهبة التخاطر. ويزعمو أن الكثير من الناس الأكثر بساطة، ممن يتبعون أسلوباً بدائياً أكثر وطبيعياً أكثر في الحياة ربما ما يزالون يتمتعون بتلك الموهبة أكثر منا نحن في الغرب.

ولا شك في أن هناك العديد من الروايات حول تجارب تخاطرية شهدها الرحالة الذين زاروا شعوباً قبلية بدائية. فعلى سبيل المثال، كتب ريتشارد سانت باربه بيكر في مذكراته، الطبول الأفريقة، التي نشرت في ثلاثينيات القرن الماضي حول الاتصال التخاطري الذي يوجد، كما يبدو، بين شعوب القبائل الكينية التي التقى بها من خلال عمله كحارس للغابات هناك.

يذكر بيكر في كتابه واحداً من أفراد إحدى القبائل عندما قال إنه يدرك أن مزارعاً محلياً يعيش على بعد أكثر من مئتي ميل قد مات، فقط لأنه رآه يحتضر. وفي حينه، كان الجميع يُعدون أن المزارع ما يزال حياً. ولكنهم، بعد سبعة أيام من ادعاء الرجل، تلقوا نبأ موت المزارع، تماماً في الوقت الذي كان الرجل قد أطلق نبوءته.

يعتقد بعض الناس أن التخاطر قد يكون قدرة خسرناها عندما أصبح مجتمعنا أكثر تعقيداً وتصنيعاً. ويظنون أن قدراتنا التخاطرية التي كان يمكن أن نتمتع بها بصورة طبيعية تتعطل مع ابتعادنا عن أساليب الحياة الأكثر بساطة وبدائية حيث يمكن أن نعول على أنفسنا ومبادراتنا الخاصة.

والخلاصة:

إن موضوع التخاطر موضوع شيق. ومع أن الحالات التي نشرت نادرة، فإن الكثير من بيننا لا بد وأن يكون قد حقق، بطريقة ما، نوعاً من الصلة بتجارب قصصية مزعومة في غضون حياته. ويود الكثير منا لو يعرف المزيد حول التخاطر. ويود العلماء لو يعرفون آلية عمله، في حالة كان موجوداً فعلاً.

ولكن النقل المباشر للمعلومات من عقل إلى عقل، أي التخاطر، يبقى لغزاً. وقد يستطيع العلماء يوماً ما أن يلقوا الضوء على الموضوع. أو ربما يبقى لغزاً إلى الأبد. وفي التخاطر، ربما كان العقل يذكرنا بأنه يقوم بخدمة حواس أخرى.

الفصل الثالث

الإدراك المسبق
Precognition

الإدراك المسبق، كالتخاطر، فرع من الإدراك خارج الحس، أو الإدراك الفوق حسي، في كونه يعتمد على الإدراك المسبق لاكتشاف المعلومات حول حوادث مستقبلية. ولكن الكثير من الناس يرفضون حقيقة أن يكون هناك شيء ما اسمه الإدراك المسبق، أو الإدراك خارج الحس. وربما يكون من الأسلم التأكيد على أن الإدراك المسبق، إذا كانت هذه الظاهرة موجودة، هو فرع من الإدراك خارج الحس إذا كان هذا موجوداً أيضاً.

رأينا في الفصل السابق حول التخاطر كيف أن الكثير من الناس، ولا سيما العلماء، يشككون في وجود التخاطر. لكن هذا التشكيك بسيط مقارنة بالتشكيك بالإدراك المسبق.

ربما كان معظم الناس لا يدركون معنى عبارة ((إدراك مسبق))، ولكنهم يدركون مفهوم التنبؤ بالحوادث المستقبلية. وربما كان الإدراك المسبق واحداً من أكثر القدرات العقلية الخارقة المزعومة إثارة وتشويشاً. وإنها لفكرة مروعة أن يحوِّل العقل البشري المقاييس الزمنية إلى أفكار سخيفة.

ولسوء الحظ، فإن عبارة ((التنبؤ بالحوادث المستقبلية)) توحي للكثير من الناس بـ ((قراءة الحظ)). وكثيراً ما تحمل هذه العبارة مضامين مشؤومة بالنسبة للكثير من بيننا.

قراءة الحظ:

قراءة الحظ، بدورها، تذكر الكثير منا بصورة لواحدة من سكان القرى مرتدية وشاحاً وقرطين حلقيين متدليين، ربما مع سمرة زائفة مضافة لمزيد من التأثير المقنع، تجلس في خيمة في السوق الموسمية للقرية، تحدق بكرة بلورية متظاهرة بأنها غجرية مستعدة لقراءة

مستقبل الناس إذا ما دفعوا أجر فتح البخت بالفضة، الفضة التي تزعم أنها مخصصة لعمل الخير. إن من تقيم في القرية منذ أمد طويل نسبياً يمكنها، فعلاً، أن تحترف مهنة التنبؤ بالمستقبل المحتمل لبعض المقيمين الآخرين الذين تعرف ماضيهم بصورة جيدة.

وتتذكر أيضاً إحداهن وهي تحدق في كوب الشاي لعلها ترى في أوراق الشاي ما يشبه غريباً طويلاً داكناً أو رحلة عبر الماء. ولكن محاولات التنبؤ بالمستقبل بقراءة أوراق الشاي اضمحلت بعد أن تحول الناس إلى استخدام أكياس الشاي ولكنها ما تزال موجودة.

قراء الكرة البلورية:

مع أننا نميل إلى الاعتقاد بأن الكرة البلورية جزء أساسي من الجهاز الذي يستخدمه قارىء البخت في السوق الموسمية التي تحدثنا عنها أعلاه، فإن العرافة بواسطة الكرة البلورية ما تزال شائعة جداً. ففي هذه الأيام، يتم غالباً صنع الكرة البلورية المعروفة من زجاج شفاف أكثر منه من مرو شفاف أو زبرجد، كما كان يجري من قبل.

تطلق أحياناً تسمية فاتحي المندل على الأشخاص الذين يدّعون القدرة على رؤية المستقبل بواسطة الكرات البلورية. ويدعي البعض من هؤلاء بأن الكرة البلورية أو الزجاجية، عندما يحدقون فيها لأول وهلة، تصبح غائمة، وعندما تنجلي، تظهر الصور التي تساعدهم على تفسير المستقبل.

وكثيراً ما تكون هذه الصور كتلاً غائمة لشكل غير مميز، ولكن لونها مهم جداً. فعلى سبيل المثال، تشير الغيوم البيضاء إلى حظ جيد، والسوداء إلى حظ مشؤوم، والخضراء إلى الأمل، وهلمجرا.

يدعي بعض فاتحي المندل القدرة على رؤية أكثر من مجرد الكتل الغائمة. فيزعمون أنهم قادرون على رؤية الأشكال الحقيقية وحتى مشاهد المستقبل بالكامل.

التنجيم:

النقطة الأساسية هي أن الكثير من الناس يُعدون قراءة الحظ نوعاً من نكتة، وربما نكتة مسلية، ولكنها بالتأكيد ليست ذلك الشيء الذي يأخذه معظم الناس على محمل الجد. قد نندفع إلى قراءة أبراجنا في الصحيفة كل يوم-وأي جريدة صغيرة تحترم نفسها ويمكن أن تكون دون منجم متمرس؟-ولكن، قلما نصدق النبوءة اليومية، وقلة من بيننا يغيرون خططهم اليومية على ضوء ما تقوله الأبراج.

ولكن ما كل واحد ينظر إلى التنجيم في هذا الإطار. واستناداً إلى بعض المنجمين المحترفين، فإن هناك زيادة ملحوظة في عدد الناس الذين يحددون مواعيد للحصول على استشارة لكي يعرفوا ما يخبئه المستقبل لهم. فمن المنطقي الافتراض، إذا بدا الحاضر قاتماً مع زيادة الوفرة، والبطالة، وارتفاع الدين، وسلبية العدالة واسترجاع ملكية البيوت، بأن كل ما يمكن أن يفعله بعض الناس هو تعليق ثقتهم على المستقبل، ومن يمكن أن يلومهم لحاجتهم إلى اختلاس نظرة بسيطة مبكرة؟

وعلى أي حال، يأمل الكثير من الناس أن يحصلوا من التنجيم على أكثر من مجرد التنبؤ بالحياة المستقبلية. إنهم يتطلعون إلى استخدام التنجيم لتحقيق إدراك أعمق لذواتهم الواقعية، وربما للحصول على مساعدة للكشف عن طاقاتهم الحقيقية. ومع ذلك، يبقى التنجيم بالنسبة لمعظمنا شيئاً يجب التساهل معه.

قراءة الكف:

قراءة الكف طريقة أخرى يستخدمها بعض الناس في محاولة للتنبؤ بمستقبل أحدهم، مع أن الكثير من المشاهير الذين ينهمكون في قراءة الكف يبذلون مجهوداً كبيراً لإظهار أن المشتغلين بقراءة الكف لا يتنبؤون، في الواقع، بالمستقبل عندما يدرسون كف أحدهم، ولكنهم، ببساطة، يشيرون إلى الميول والإمكانات التي يمكن أن تظهر في حياته. وبقراءة الكف يمكنهم أيضاً أن يكشفوا عن أشياء حول شخصية وحياة الشخص الذي يقرؤون كفه.

تتضمن قراءة الكف دراسة شكل اليد، وحجمها ومظهرها العام، بما في ذلك الأصابع، وطول الإبهام، وثخانته وتموضعه. وتتضمن أيضاً دراسة باحات الكف المرتفعة قليلاً، التي تعرف بالمرتفعات، كالمشتري، والزهرة والمريخ. وتخضع للدراسة أيضاً الخطوط الكبيرة والصغيرة في راحة اليد.

تتضمن الخطوط الكبيرة في راحة اليد خط القلب، الذي يشير إلى الشعور العاطفي، وخط الرأس، الذي يشير إلى الملكات العقلية والذكاء، وخط الحياة، الذي يشير إلى الرفاه المادي. أما الخطوط الصغيرة، التي لا توجد على كامل الراحة، فتتضمن خط القدر، وخط الحظ، ويعرف أيضاً بخط النجاح، وخط الصحة.

إن كل من يشتغل بقراءة الكف، سواء على سبيل الهواية أو كمهنة، يجب ألا يأمل بفهم الموضوع بسرعة. فهو موضوع معقد، لا سيما لأن الخطوط في راحة اليد قلما يمكن تحديدها بوضوح وقد تم طبعها على شكل رسوم توضيحية في كتب قراءة الكف.

قراءة البطاقات:

يتحول بعض الناس الذين يريدون إلقاء نظرة على المستقبل إلى قراء البطاقات. ومن هؤلاء من يدعي القدرة على قراءة الحظ بواسطة مجموعة من ورق اللعب العادية، لأنه بطاقات معينة يفترض أن تحمل بعض المعاني أو توحي ببعض الحوادث. فعلى سبيل المثال، يقال إن تسعة البستوني تشير إلى الحظ، والخسارة والنزاع، وثمانية الديناري إلى رحلة ممتعة أو زواج متأخر، وعشرة الكوبة إلى الفرح، والحب، والحظ الجيد وتحقيق الطموح.

وهناك قراء آخرون للبطاقات لا يستخدمون ورق اللعب بل يستخدمون بطاقات التاروت بدلاً منها. وبطاقات التاروت، التي كانت مكروهة، راحت تحظى بالشعبية من جديد.

تتألف مجموعة التاروت القياسية من ٧٨ بطاقة، تختلف كلياً عن ورق اللعب. وهذه أيضاً تشير إلى معانٍ يفسرها القارىء للشخص الذي يلتمس المساعدة. وينسبون إلى بطاقات التاروت جوانب روحية، مع أن هذا الجوانب لا يشدد عليها الآن كما كانت سابقاً.

المستبصرون Clairvoyants:

تستخدم كلمة «مستبصر» غالباً بالمعنى نفسه الذي تستخدم فيه عبارة «قارئ الحظ» التي شرحناها سابقاً. وهكذا، يمكن أن يقول شخص ما إنني سأذهب لرؤية مستبصر لكي يقرأ لي بطاقات التاروت. وتستخدم الكلمة أيضاً لوصف شخص يدعي تجربة إدراكية مسبقة، كمن تخطر له رؤيا بكارثة مستقبلية. وإضافة إلى ذلك، تستخدم الكلمة أيضاً لوصف شخص يدعي عادة أنه يتمتع بقدرات فيزيائية.

إن اشتقاق الكلمة لا يفيدنا في شيء. فهي مشتقة من كلمة فرنسية مشتقة، بدورها، من الكلمة الفرنسية Clair، أي واضح، والكلمة الفرنسية Voir، أي رؤية.

ولكنها تستخدم عادة في دراسات الإدراك خارج الحس بمعنى اكتشاف المعلومات حول الأشياء والحوادث بحاسة ما غير الحواس الخمس العادية، وبمعنى آخر، بواسطة الإدراك الفوق حسي. ونستخدمه في هذا الكتاب بهذا المعنى وسنعالجه في الفصل الرابع.

ينهمك الكثير من الناس في الأشكال المختلفة لقراءة الحظ. فبعضهم محترف، والبعض هاو متحمس يجرب ببساطة مهاراته المفترضة على أصدقائه أو لمجرد الضحك.

يمكن أن نصنف الناس الذين يستشيرون قراء الحظ المحترفين إلى فئتين. الأولى، تستشيرهم ربما على سبيل الاهتمام أو على سبيل الفضول. فهم أكثر ميلاً إلى مقاربة

التجربة، على الأقل، بدرجة من الشك وربما بقدر كبير من التردد. والثانية، ربما تستشيرهم بشعور أكبر من الإيمان، وربما بمعنى اليأس، لأنهم فشلوا في إيجاد أي نوع آخر من العون.

يستحيل طبعاً تحديد عدد من يدعون القدرة على التنبؤ بمستقبل الآخرين، أو إذا كان هؤلاء موجودين حقاً، أو ما إذا كان يتمتع من يباشرون هذا العمل على أساس مهني بأي شكل من القدرة الفيزيائية، أو إذا كانت هذه القدرة موجودة فعلاً. ولا شك في أن هناك عدداً كبيراً من المحتالين بين هؤلاء ولا شك أيضاً في أن بعضهم يعتقد فعلاً بأنه يتمتع بهذه الموهبة.

ولكن الناس الذين يستشيرون المستبصرين أكثر أهمية. فإذا كانوا في حالة معرضة للخطر، فإنه يحتمل أن يكون خداعهم سهلاً، ويميلون إلى تصديق كل ما يسمعونه. والمهم هو الا يقال للناس، ولا سيما الهش عاطفياً، شيئاً يمكن أن يسبب لهم المزيد من الكرب. فلا يقال لهم، مثلاً، إنهم لن يعيشوا طويلاً أو أنهم مرضى إلى حد خطير.

إذا لم يتعرض المستشير إلى ضرر فعلي نتيجة لتجربته في استشارة شخص يدعي القدرة على التنبؤ بالمستقبل وإذا لم تكن أجور تلك الاستشارة باهظة، فلن يكون هناك كبير ضرر، بل يمكن أن تكون هناك بعض الفائدة إذا ما أعطي أحدهم أملاً في المستقبل.

ولكن هذا يطرح سؤالاً حول مدى دقة تنبؤات مدعي قراءة الحظ. فالناس الذين يستشيرونهم فقط هم من يكونون في موقع العارف، وحتى في حال المعرفة، فإنه قد تمر سنوات قبل أن يكونوا في موقع يستطيعون منه إصدار أي نوع من الحكم.

وحتى إذا تنبأ قارئ الحظ بشيء وتبينت صحته فيما بعد، فإن هذا لا يعني بالضرورة أنه يتمتع بنوع من قدرة خارقة. ويمكن تعليل ذلك بأنه دور تلعبه المصادفة.

ثم هناك دور تلعبه القدرة على التنبؤ. فالناس الذين يدعون القدرة على قراءة الحظ يمكن أن يحصلوا على قدر كبير من المعلومات من الزبائن باستنطاق ذكي بارع حول ما لا يمكن للزبون أن يدركه. هذا إضافة إلى القدرات المعقولة للملاحظة، التي يمكن أن تنبئ بالكثير حول ظروف الزبون، وتساعد قارئ الحظ المفترض على التنبؤ بدرجة من الدقة، ودون أي درجة من قدرة خارقة، بالأشياء التي يحتمل أن تحدث للزبون. ويمكن لقدرات الملاحظة المذكورة أن تساعد قارئ الحظ على استنتاج الكثير حول الزبون من مظهره، وعمره، وجنسه، وكلامه، وملابسه، إلخ، بالطريقة نفسها التي يتبعها الشرطي السري.

وهناك أيضاً موقف الزبون. فإذا كان مؤمناً بعمق بقدرات قارئ الحظ، فإنه يمكن أن يفسر تماماً ما يحدث فيما بعد عندما تتحقق النبوءة، سواء كانت صحيحة فعلاً أم لا. يضاف

إلى ذلك أن بعض قراء الحظ المفترضين يتمتعون بفطنة استثنائية لتركيب جمل فضفاضة وشاملة جداً يمكن أن تناسب عدداً من الحالات المستقبلية.

وبعد كل هذا، هناك طبعاً كل النبوءات التي يطلقها قراء حظ مفترضون ولا تقترب بأي حال من الحقيقة. وتغيب هذه النبوءات في مجاهل النسيان، ولا يبقى منها سوى النبوءات الحساسة.

وإذا تركنا قراء الحظ المحترفين أو الهواة، فإن هناك، كما يبدو، أناساً يتمتعون بموهبة غريبة يمكن تسميتها موهبة التنبؤ. ونجد هؤلاء الناس عبر التاريخ وما زالوا موجودين في القرن العشرين.

التنبؤ والهاجس Prediction and Premonition:

كما هي الحال مع الإدراك الخارق أو الإدراك خارج الحس، فإن هناك قدراً كبيراً من الشك حول الإدراك المسبق. فمن الصعب أن يصدق أحدنا بقدرة شخص ما على المعرفة المسبقة بالحوادث المستقبلية، ومع ذلك، نشرت أمثلة عديدة حول هذه المسألة، ويصعب على المرء دحضها.

يبدو أن الكوارث الكبيرة تجذب الإدراك المسبق أو ادعاءات الإدراك المسبق. ويزعم الكثيرون بأنهم يتنبؤون بنجاح بكارثة رهيبة من نوع ما، وقد نشر العديد من هذه المزاعم في الصحف. وكانت بعض هذه الكوارث وطنية أو عالمية وبعضها ذو طبيعة محلية أو منزلية.

الشك:

هناك من يشكك بوجود شيء اسمه الإدراك المسبق أو الهاجس، وهو شعور بأن شيئاً ما سوف يحدث، وكثيراً ما يرقى تقريباً إلى الدرجة نفسها كالإدراك المسبق. ويقولون إن الإدراك المسبق هو مجرد مثال لادعاء أحدهم بعد حادث ما بأنه عرف به قبل وقوعه. ولكن المسألة ليست بمثل هذه البساطة، لأن هناك حالات مسجلة حيث كان قد تم تسجيل النبوءة قبل وقوع الحادث.

ويزعم بعض الناس أن الكثير من النبوءات والهواجس التي يدعيها البعض هي عادة ذات طبيعة غامضة أو غير محددة. فقد يخالج أحدهم هاجساً بأن طائرة سوف تتحطم، دون أن يحدد تماماً متى وأين. وإذا وضعنا في اعتبارنا عدد الطائرات التي تسافر يومياً في السماء، فإن مدعي الإدراك المسبق يكونون متأكدين من أن إدراكهم المسبق المفترض سوف يتحقق تماماً على أساس الإحصائيات وحدها.

لا شك في أن هناك أمثلة لهذا، ولكن رفض كل أمثلة الإدراك المسبق بهذه الطريقة لا يتسم بالعدل إطلاقاً. فالكثير من الناس الذي يتنبؤون بالكوارث ليسوا دائماً غامضين، والبعض منهم، ولا سيما عندما يكون أفراد من أسرتهم أو أصدقائهم معنيين، يكونون، في الحقيقة، واضحين جداً.

إيبرفان:

حالة حديثة موثقة لإدراك مسبق لكارثة لم تكن محددة تماماً لكون النبوءة لم تسمِّ، كما يبدو، المكان الحقيقي. وعلى العكس، بلغ مستوى التفصيل الذي أعطي حداً كان يتوجب معه تقديم معظم الشيء المحدد المثبت للتفكير حوله.

حدثت الكارثة في إيبرفان، وهي قرية مناجم في جنوب ويلز. ففي الساعة التاسعة والربع صباحاً من يوم ٢١ تشرين الأول عام ١٩٦٦، انزلق مقلب الفحم القريب من القرية بكتل ضخمة نزولاً نحو القرية وغمرتها. وكان عدد الأطفال الذين قتلوا هو الجانب الأكثر مأساوية للكارثة.

كانت مدرسة بنتغلاس جونيور في طريق الكتل الضخمة السوداء فغمرتها. وإذا وضعنا في اعتبارنا الوقت الذي وقع فيه الحادث، فإن الأطفال كانوا في المدرسة، فقتل أكثر من مئة منهم إضافة إلى العديد من الكبار. لقد كانت مأساة شديدة الوطأة لأنها قتلت عدداً من الأطفال.

من البديهي أن يُنشَر الكثير من التقارير الصحفية، لأن هذه الكارثة المخيفة شدت انتباه الصحافة العالمية فضلاً عن الصحافة الوطنية. والأنكى من ذلك حقيقة أنه كانت هناك عدة روايات موثقة جيداً حول الكارثة قبل أن تحدث، مع أنها لم تذكر المكان الحقيقي.

وربما كان أكثر هذه الروايات شهرة هي نبوءة ادعتها امرأة في الكنيسة الروحانية في بلايموث مساء يوم ٢٠ تشرين الأول. فقد روت بحضور ستة شهود حول رؤيا رأت فيها كتلة ضخمة من الفحم تندفع بعنف نزولاً على سفح التل نحو طفل مذعور في الأسفل. وتحدثت أيضاً عن رؤيتها لمبنى المدرسة القديمة ومنجم ويلز. وصباح يوم الكارثة، تحدثت المرأة إلى أحد جيرانها حول رؤياها.

من الصعب تجاهل هذا النوع من النبوءة. صحيح أن المرأة لم تكن واضحة حول المكان ولكن الكارثة كانت شاذة جداً. فلو كانت تلك الكتلة الضخمة تيهوراً من الثلج، لكان هناك مبرر إضافي للشك، ولكن، من الواضح أن تيهور الفحم أكثر ندرة.

علاوة على ذلك، إن المرأة في بلايموث لم تكن وحدها التي تنبأت حول كارثة إيبرفان. فقد أخبرت طفلة والديها في وقت ما قبل يوم الكارثة بحلم حول أنها ذهبت إلى المدرسة كالعادة ولكن المدرسة لم تكن موجودة، وأن شيئاً أسود كان يغطيها بصورة كاملة. وأكد هذه الرواية ليس فقط والدا الطفلة بل أيضاً القسيس المحلي.

وادعت أيضاً امرأة في سيدكوب، في كِنْت، بأنها حلمت بكارثة في قرية مناجم للفحم. حدث الحلم قبل سبعة أيام من كارثة إيبرفان، وأكدت اثنتان من صديقاتها، إحداهن كاتبة، بأنها أخبرتهم بحلمها قبل حدوث الكارثة بأربعة أيام. كانت قد تحدثت، كما يبدو، عن مبنى مليء بالأطفال، واندفاع الفحم والماء نحو المبنى وطمره. وتحدثت أيضاً عن صراخ الأطفال.

الباخرة تيتانيك:

كان غرق الباخرة تيتانيك كارثة كبيرة، كارثة اجتذبت عدداً كبيراً من النبوءات. لقد غرقت الباخرة البريطانية في أول رحلة لها إلى أمريكا ليلة ١٥/١٤ نيسان عام ١٩١٢ بعد اصطدامها بجبل جليدي عائم. ومات في تلك الكارثة أكثر من ١٥٠٠ من أصل الـ ٢٢٠٠ شخصاً كانوا على متنها، جزئياً بسبب نقص قوارب النجاة.

إن أخبار الكارثة اجتذبت ليس فقط الكثير من النبوءات المزعومة-ربما كان معظمها قد تكوَّن بعد الحادث-بل أيضاً عدداً كبيراً من الادعاءات لأناس قالوا إنهم كانوا يزمعون الإبحار على متن الباخرة ولكن شيئاً ما حدث جعلهم يغيرون فكرهم في آخر دقيقة. وفي الحقيقة، وصل عدد الناس الذين أطلقوا مثل هذه الادعاءات إلى ضعف الطاقة الحقيقية للباخرة على الاستيعاب.

ساوْدِن:

من الواضح أن بعض هذه النبوءات المفترضة حول الباخرة تيتانيك، على كثرتها، أكثر إقناعاً من بعضها الآخر. وكانت النبوءة الأكثر إزعاجاً هي ادعاء القبطان ساودن من جيش الخلاص بأنه يعتقد بأن فتاة تحتضر كانت قد رأت رؤيا حول كارثة تيتانيك. اسم الفتاة جيسي، والتاريخ ١٤ نيسان، وقبل ثلاث ساعات ونصف الساعة تقريباً من اصطدام تيتانيك بالجبل الجليدي.

يبدو أن جيسي أصيبت بالهذيان قبل وفاتها مباشرة، وتحدثت إلى القبطان ساودن حول قدرتها على رؤية باخرة كبيرة تغرق والعديد من الناس يغرقون. من الواضح أن هذه النبوءة لم

تكن محددة، ولكنها ذكرت بعد ذلك شخصاً يدعى وولي كان يعزف الكمان وكان قادماً إلى القبطان ساودن.

لم يكن هذا في حينه يعني الشيء الكثير للقبطان ساودن، ولكن عندما انتشرت الحقائق حول غرق الباخرة تبيّن أن الفرقة الموسيقية كانت تعزف على ظهرها في محاولة لمواساة المسافرين. وكان اسم رئيس الفرقة وولي هارتلي، وقد مات في الكارثة هو وجميع أعضاء الفرقة.

تحدثت جيسي عن وولي القادم إلى القبطان ساودن، وفي الحقيقة، كان القبطان يعرف وولي هارتلي منذ سنوات ولكنه فقد أثره. وكان بالتأكيد لا يعرف بوجوده على ظهر الباخرة.

من المحزن أن تكون جيسي ماتت بعد أن سردت رؤياها. ولكن القبطان ساودن كان في منتهى الصلابة حول ما قالته وصرح بأن رؤيا الفتاة بدلت نظرته الروحية. وعلى أي حال، من الصعب أن نشك كلياً بهذه الرواية لأن القبطان ساودن فهمها مباشرة بسبب وجود والي.

بلانش مارشال:

نشر ادعاء آخر لهاجس كارثة الباخرة تيتانيك، وصفه جون سبنسر في كتابه: الخارق- منظور حديث، ويحتوي أيضاً عناصر يصعب تجاهلها. فقد قالت امرأة تدعى بلانش مارشال إنها ذهبت مع زوجها للالتحاق بالجمهور الذي تجمع لمشاهدة إبحار الباخرة تيتانيك بعد جزيرة وايت. ويقال إنها نادت زوجها بصوت عال وقالت له إن الباخرة سوف تغرق قبل أن تبلغ غايتها في أمريكا وإنه يجب أن يفعل شيئاً لمنعها من مواصلة رحلتها. وتكلمت أيضاً حول رؤيتها للكثير من الناس الذين يصارعون من أجل الحياة في مياه جليدية. ولم يفعل زوجها شيئاً أكثر من شعوره بالارتباك والغضب لأنها عرّضت نفسها للسخرية.

وعلى عكس رواية جيسي، فإن بلانش لم تذكر في روايتها شخصاً معيناً.

لوزيتانيا:

قدمت بلانش دليلاً آخر على قدراتها التنبؤية. فبعد عدة سنوات، حجز آل بلانش أمكنة للسفر إلى أمريكا على ظهر الباخرة لوزيتانيا، ولكن بلانش مارشال ألحت على تغيير الحجز لأن الباخرة سوف تغرق أثناء رحلتها على يد الألمان، وكانت بريطانيا في حالة حرب معهم. كانت بلانش، هذه المرة، واضحة جداً في نبوءتها لأنها كانت سعيدة جداً بإبحارها في رحلة سابقة على ظهر لوزيتانيا.

ولسوء الحظ ظهر أخيراً أن نبوءتها كانت صحيحة. فقد أغرقت غواصة ألمانية لوزيتانيا عند شاطيء آيرلندا في ٧ مايس عام ١٩١٥.

من الصعب جداً استبعاد نبوءتي بلانش على اعتبارهما مصادفة، فقد كانتا واضحتين جداً بالنسبة لذلك، وأكثر صعوبة أيضاً استبعادهما معاً، لأنهما تُظهِران، كما يبدو، قدرة غريبة للعقل على رؤية المستقبل، على الرغم من صعوبة تصديق ذلك.

هاريس:

وهناك نبوءات أخرى مزعومة تتعلق بكارثة الباخرة تيتانيك، وهي لا تخلو أيضاً من ظل للحقيقة. فمن بين الركاب الذين كان يجب أن يسافروا على ظهر الباخرة المنكوبة قائد فرقة مسرحية يدعى هـ. ب. هاريس.

فعندما تلقت أسرته برقية تعلمها بقراره بالعودة إلى الوطن على ظهر الباخرة، خامر أحد أصدقائه، وليم كلاين، هاجس الكارثة، فأبرق له يرجوه ألا يركب متن الباخرة تيتانيك. فرد عليه هاريس ليقول إنه ملتزم بخطته الأصلية. وعند ذلك، طلب كلاين من أحد أصدقاء هاريس أن يساعده في محاولته لإقناعه بعدم العودة على متن الباخرة تيتانيك. وعلى الرغم من هذه المداخلات، يبدو أن هاريس كان مصمماً على تجاهل مخاوف كلاين وأبحر في حينه على متنها. فكان واحداً من الكثيرين الذين هلكوا بغرقها.

مع أن خوف كلاين كان قائماً على أساس هاجس غير واضح تقريباً لكونه لم يحدد لماذا يتوجب على هاريس الا يمضي في خطته، إلا أنه كان من الطبيعي جداً أن يفرض على نفسه ضرورة الاتصال بهاريس ومحاولة حشد مساعدة الأصدقاء لإقناعه بالعدول عن الإبحار. ومن المفترض أن تقدم البرقيات برهاناً مادياً ولا بد أن يكون رآها أناس آخرون إضافة إلى المرسل والمرسل إليه.

العبث:

الجانب المثير من النبوءة المتعلقة بغرق تيتانيك هو أن هناك عدداً من الروايات التي كتبت قبل الكارثة وتنطوي على تشابه غريب لبعض جوانب غرق الباخرة. وربما كان أكثر تلك الروايات شهرة هي رواية مورغان روبرتسون التي تحمل عنوان، العبث، والتي نشرت عام ١٨٩٨.

في رواية العبث، اسم الباخرة تيتان. وهي، كتيتانيك، كانت ما يعرف اليوم بعمل فني. فكانت تُعد عصية على الغرق، وكانت تحمل عدداً غير كاف من قوارب النجاة بالنسبة

لقدرة استيعابها. وكانت وجوه التشابه بين الباخرتين من حيث الحجم، وقدرة الاستيعاب والتصميم مدهشة جداً. وكلتا الباخرتين أبحرتا في شهر نيسان، وكلتاهما اصطدمتا بجبل جليدي عائم.

كان هناك وجوه أخرى للشبه بين الباخرتين، على الرغم من وجود عدد من الاختلافات أيضاً ولكنها لم يتم التوقف عندها. وربما يمكن عزو بعض وجوه الشبه المهمة للمصادفة، ولكن يمكن أن توحي بشيء من قدرة الإدراك خارج الحس لعقل المؤلف.

إن غرق تيتانيك أدخل الرعب إلى قلوب معظم الناس وأصبح حادثاً معروفاً جداً. وقد اجتذبت عدداً غير عادي من النبوءات ربما لأنها كانت كارثة ضخمة. ومن المحتمل جداً أن يكون بعض تلك النبوءات نتيجة للخداع أو الاحتيال، وبعضها يمكن عزوه إلى مجرد المصادفة، والبعض الآخر نتيجة لـ «تنبؤ» الناس بعد الحادث. ومع ذلك، يبدو أنه لا بد وأن يكون هناك عنصر من الخارق، على الأقل، في بعض تلك النبوؤات.

تظهر أهمية معدل وقوع التنبؤ حول تيتانيك في حقيقة أنه تم تكريس كامل الكتاب لاستكشاف الموضوع. وقد نشر جورج بيهي كتاباً بعنوان تيتانيك-تحذيرات نفسية من مأساة، صنّف فيه عدداً من هذه النبؤات وكتب عنها.

فلِكسبورو

في ٢ حزيران عام ١٩٧٤، وفي وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم، حدث في الساعة الرابعة والنصف انفجار ضخم في معمل كيميائي عند همبرسايد. كان الانفجار هائلاً في الواقع، وأضر بعدد كبير من المباني، ودمر، بشكل خاص، مجموعة المباني حول المعمل. والأهم من ذلك، أنه تسبب في مقتل ٢٨ شخصاً وإصابة مئات الأشخاص.

هنا أيضاً نجد مثالاً لنبوءة مزعومة حدثت في إطار الكارثة. ففي وقت سابق من ذلك اليوم، نحو منتصف النهار، كانت شابة تشاهد التلفزيون في كليثوربس، على بعد عشرين ميلاً تقريباً من فلِكسبورو، فادعت بأنها شاهدت خبراً عاجلاً قدم معلومات حول انفجار في فلِكسبورو وقضى على عدد من الأشخاص.

ذكرت الحقيقة لزوجين كانا معها في البيت قبل حدوث الانفجار. وهكذا كان هناك شهود على النبوءة المزعومة. إضافة إلى ذلك، كانت النبوءة دقيقة جداً، لا مجرد تحذير غامض لكارثة غفل.

الرحلة الجوية ٤٠١

نحو منتصف ليل ٩ كانون الأول عام ١٩٧٢ تحطمت في أجمات فلوريدا طائرة أمريكية من طراز L-1011، كانت تقوم بالرحلة الجوية رقم ٤٠١.

وكانت إحدى المضيفات على الخطوط الجوية الشرقية (الخط الجوي الذي تعود له الطائرة التي تحطمت) قد ذكرت قبل أسبوعين من وقوع الحادث بأنها حلمت بتحطم الطائرة L-1011 ليلاً فوق أجمات فلوريدا. وزعمت أنها رأت الجناح الأيسر للطائرة وهيكلها يسقطان إلى الأرض وسمعت صراخ الناس.

كانت المضيفة، التي لم يعلن اسمها حماية للخصوصية، قد حدثت زملاءها في الطاقم حول الرؤيا وتنبأت بأن تحطماً كهذا سوف يحدث نحو بداية السنة الجديدة. وقالت لزملائها أيضاً بأن الحادث لن يشمل طاقمهم ولكن سيكون هناك نوع من نجاة بأعجوبة.

وفي الواقع، تم في ليلة الاصطدام الفعلي إدراج اسم المضيفة بين أسماء طاقم الطائرة التي تحطمت، ولكن جرى تغيير الطاقم في آخر دقيقة، ولذلك لم تكن في الرحلة. وهكذا، كانت نجاتها بأعجوبة.

هذه نبوءة دقيقة وموثقة بصورة جيدة يصعب فيها تجاهل الإدراك خارج الحس أو عمل قوة أخرى. واعتبارها من قبيل المصادفة يبدو محاولة لتوسيع المصادفة إلى أبعد مما يجب. ومع ذلك، ليس هناك، كما يبدو، ما يشير إلى الخداع.

غودارد:

لم تكن الأمثلة المزعومة للإدراك المسبق أبداً صوراً دقيقة لما سيحدث في المستقبل. ويمكن أن تكون هناك درجة ما من الاختلاف، ومع ذلك، يمكن أن يبقى الإدراك المسبق مثيراً جداً وعلى صلة وثيقة بما يحدث.

إن النهاية المُتَنَبَّأ بها هي التي تتغير أحياناً. وقد كان هذا صحيحاً في حالة مارشال الجو السير فيكتور غودارد من سلاح الجو الملكي النيوزيلاندي وجيرالد غلادستون، وهو ضابط في الأسطول الملكي، وأصبح فيما بعد أدميرالاً.

نزل غودارد ضيفاً على القنصل البريطاني، الجنرال ج. آ. أوغدن، في حفلة في شانغهاي في كانون الثاني عام ١٩٤٦، في الليلة التي سبقت سفره إلى الوطن جواً. وفي تلك الليلة سمع غلادستون عَرَضاً، دون أن يدرك هذا أن غودارد كان موجوداً في الحفلة، يتحدث عنه فيما

يتعلق بارتطام. فقد رشح أن رؤيا واضحة جداً تراءت لغلادستون رأى فيها غودارد على متن طائرة دي سي-٣ أحدقت بها عاصفة ثلجية وتحطمت على شاطئ حصوي بعد تحليقها فوق أحد الجبال. وقد قتل في تلك الطائرة غودارد والآخرون، بمن فيهم ثلاثة من المدنيين-إنكليزيان وفتاة.

من الواضح أن هذه العينة من الأخبار لم تكن سارة لشخص على أهبة السفر. ولكن، مع أن غودارد كان يجب أن يطير إلى طوكيو صباح اليوم التالي على متن طائرة دي سي-٣ إلى نيوزيلاندة في طريقه إلى الوطن، لم يخامره قلق في غير محله. ولم يكن سبب شعوره هذا هو عدم إيمانه بالقدرات النفسية بل لأن ظروفه لم تكن تتفق مع الظروف التي وصفها غلادستون. كان سيرافقه فقط اثنان من أركان حربه دون مدنيين.

ولكن ظروفه تبدلت عند نهاية الأمسية. فقد تم حجز أماكن على الطائرة للعديد من الناس، بمن فيهم أوغدن وإحدى السكرتيرات التي كان يجب أن تحضر اجتماعاً ملحاً في طوكيو وبأسرع ما يمكن ومراسل صحيفة لندنية.

أقلعت الطائرة صباح اليوم التالي ودخلت بعد الظهر في جو مثلج. فضلّت طريقها، ووجد المسافرون أنفسهم، بشكل غير متوقع، يحلقون فوق الجبال. وتعطل جهاز اللاسلكي ونقصت كمية الوقود في الطائرة، ولهذا راح الطيار يبحث عن مكان يهبط فيه في ظل عاصفة ثلجية سيئة. كانت تحتهم قرية صغيرة شاطئها البحري على شكل شريط حصوي.

عندما كانت الطائرة تحاول الهبوط، لم يستطع غودارد التخلص من التفكير برؤيا غلادستون. وبعد بعض المحاولات الفاشلة للهبوط، نجح الطيار أخيراً، ولكن عجلات الطائرة تحطمت وراحت تدور عبر الحصى حتى توقفت بمواجهة البحر. يمكن للمرء أن يتخيل أين كانت أفكار غودارد أثناء إجراء الهبوط.

وعلى ضوء حقيقة أن رؤيا غلادستون كانت صحيحة حتى هذه المرحلة، فإن غودارد أصيب بالدهشة لأنه بقي على قيد الحياة مع كل الركاب الآخرين. وكان يمكنه أن يشهد على صحة رؤيا غلادستون. ولا شك في أنه كان مسروراً جداً لأن تلك الرؤيا لم تكن صحيحة تماماً.

غودلي:

هناك حالة أخرى معروفة تماماً في تاريخ الإدراك المسبق تثبت أيضاً احتمال النقص في طبيعة معرفة المستقبل. وقد أوردها روبين ستون في كتابه أسرار العقل، لأنها لم تكن في هذه المرة رواية موت وكارثة.

أثناء دراسته في أكسفورد، وفي واحدة من ليالي شهر آذار عام ١٩٤٦، رأى النبيل جون ريموند غودلي حلماً كان فيه يقرأ الجريدة المسائية لليوم التالي. فقرأ نتائج سباق الخيل ولاحظ أن حصانين فازا بالسباق باحتمال ٧-١. وكان أحد الحصانين يدعى برندل والآخر يدعى جولادين.

وفي اليوم التالي رجع وصديق له إلى الصحيفة ووجدا أن الحصانين سيشتركان فعلاً في سباق ذلك اليوم ولكن في شوطين مختلفين. كان برندل سيشارك أولاً فراهن غودلي عليه. وعندما فاز، راهن بما ربحه على جولادين، ففاز هذا أيضاً.

حتى الآن، كل شيء يسير على ما يرام. فقد كان الإدراك المسبق صحيحاً. ولكن كانت هناك نواقص تمثلت في أن الاحتمال المنقول عن الحلم كان بالكاد إلى الجانب المتفائل ٥-٤. وكان سعر الانطلاق لبرندل ٥-٤ ولجولادين ٥-٢. ومع كل ذلك، فإنها تُعد رواية مؤثرة حول الإدراك المسبق.

نجد هناك تأييداً لهذه الرواية في كون غودلي أخبر بعض أصدقائه قبل السباق. وفي الواقع، شاطره بعضهم حسن طالعه، بالمراهنة على الحصانين.

عدم الدقة:

إن اسم الحصانين الذين دار حلم غودلي حولهما، أو على الأقل، الاسمين الذين بقيا في ذاكرته في الصباح بعد الحلم، لم يكونا دقيقين تماماً. فعلى سبيل المثال، استيقظ مرة وهو يتذكر اسم تيوبرمور، ولكنه لم يستطع أن يتعرف إلى حصان بذلك الاسم. ومع ذلك، راهن على حصان اسمه تيوبيروز كان في ذلك اليوم يجري في غراند ناشيونال، وفاز الحصان. ربما كانت موهبته المفترضة في الإدراك المسبق قد أخطأت قليلاً، ولكن من المحتمل أيضاً أنه لم يتذكر الاسم تماماً.

تشير قصة غودلي أيضاً إلى وجه آخر من الإدراك المسبق. فهو، كالتخاطر، لا يمكن استحضاره عند الطلب. كل شيء إلا ذلك. فالأحلام حول رابحين محتملين كانت مخططة، مع أنها كانت أكثر انتظاماً من معظم أمثلة الإدراك المسبق. فبعض الناس يخبُرون فقط حلماً، أو رؤيا أو هاجساً نبوئياً واحداً خلال حياتهم-ومعظمهم لا يخبُرون شيئاً من هذا، أو على الأقل، لا يخبرون شيئاً لا ينسى. ثم إن الأحلام تتوقف فجأة كما بدأت، ولا سيما بعد مراهنة مربحة.

نوستراداموس:

نوستراداموس واحد من الشخصيات التي شاع كثيراً ارتباطها بالنبوءات. كان فيزيائياً فرنسياً ومستبصراً، عاش في القرن السادس عشر (١٥٠٣-١٥٦٦) وما زالت نبوءاته تتصل بعصرنا الحاضر كما يقال.

يقول البعض إنه كان مسؤولاً عن عدد كبير من النبوءات المهمة، التي يشير بعضها إلى العصور الحديثة. وتتضمن نبوءاته بحروب نابليون، والثورة الفرنسية، والحرب الأهلية الأمريكية، وتنازل إدوارد الثامن عن العرش، وصعود آدولف هتلر وسقوطه، واغتيال الرئيس كيندي. ولو صح فقط بعض من هذا، عندئذ يصبح من الواضح أنه يتمتع بموهبة حقيقية

ولكن، هناك مشكلة رئيسة ترافق كتابات نوستراداموس. فهي كتابات تفسيرها صعب جداً. فعلى فرض أنه كان يتحاشى ديوان التفتيش، فإنه كتب بالأشعار الرباعية في خليط من اللغات. كانت كتاباته مزيجاً من اليونانية، واللاتينية، والفرنسية واللهجة المحلية. وكأن هذا لم يكن كافياً، فضمَّن النص تعابير غامضة، حتى أن بعض المفسرين المتأخرين استخدموا الجناس اللفظي لتركيب كلمات أخرى.

يمكن عزو بعض الصعوبات التي تواجه تفسير معناه إلى تغيير تفاصيل النوع الذي يَظهر أحياناً في نبوءاته. وقد ذكرنا هذا أعلاه في بعض الحالات الأخرى المزعومة للإدراك المسبق، كالحصان الذي دعي تيوبيروز الذي ظهر في حلم غودلي باسم تيوبَرمور. ولهذا السبب، يسود الظن بأن «هستر Hister» هو اسم محرَّف لـ «هتلر Hitler».

وبسبب الصعوبة في تفسير الأشعار الرباعية لنوستراداموس، كان الناس عاجزين عن معرفة ما إذا كانت كتاباته نبوءات، أو حول ما هي نبوءات، حتى تظهر حادثة يبدو أنها تتلاءم مع واحدة منها. وحتى في هذه الحالة، يجب إجهاد الخيال والفكر لجعل بعض التفاصيل تتلاءم مع النبوءة. والمشكلة بالكامل تتمثل في تفسير كلماته على ضوء الإدراك المتأخر.

رسائل ريل:

كانت رسائل ريل في إدراكها المسبق أكثر وضوحاً من رباعيات نوستراداموس. وقد كتبها أندرياس ريل عام ١٩١٤، عندما كان يخدم في الجيش الألماني قرب كولمار في الألزاس إلى عائلته في بافاريا. وتتعلق هذه الرسائل، وهي اثنتان، بنبوءات أطلقها سجين فرنسي عندما كان ريل وجنود آخرون يستجوبونه.

ولكن ليس من الواضح تماماً من هو ذلك الفرنسي، مع انه، كما يبدو، كان مدنياً أكثر منه عضواً في الجيش الفرنسي. وقد وصفه ريل بـ «الرجل المقدس»، وكان ريل يقيم في دير للكبوشيين في سيغولشايم، قرب كولمار. وهناك رأي بأنه كان يوماً رجلاً غنياً تبرع بثروته والتحق بالدير.

كانت بعض نبوءات الفرنسي التي نقلها ريل تبعث على الدهشة. فعلى سبيل المثال، تنبأ بأن الحرب التي كان ريل أحد جنودها ستستمر خمس سنوات وأن ألمانيا سوف تخسرها. كانت الحرب طبعاً هي الحرب العالمية الأولى وانطلقت النبوءة في أول سنة من سنواتها-١٩١٤.

وفي الواقع، استمرت الحرب العالمية الأولى أربع سنوات وثلاثة أشهر، ولكن هذا هو نوع الاختلاف الذي نجده في أمثلة أخرى للإدراك المسبق. والشيء المهم الذي يجب وضعه في الاعتبار هو أنه في الوقت الذي كان فيه ريل يستجوب الرجل الفرنسي كان الظن السائد هو أن الحرب سوف تستمر زمناً قصيراً، وكان الشعور العام هو أن «كل شيء سينتهي بحلول أعياد الميلاد». ولا شك في أن قلة من الناس كانت تتوقع في شهر آب عام ١٩١٤ أن الحرب يمكن أن تستمر خمس، أو حتى أربع سنوات.

إن ما نقله ريل حول نبوءة الفرنسي بما أثبته هتلر فعلاً يُظهر الاختلاف الطفيف نفسه الذي نجده في الكثير من الأمثلة الأخرى للإدراك المسبق. وتنبأ الرجل الفرنسي بأن المسيح الدجال سوف يولد ويصبح دكتاتوراً في ألمانيا عام ١٩٣٢. والواقع هو أن النازيين استولوا على السلطة في انتخابات كانون الثاني عام ١٩٣٣.

وتنبأ بأن تحضيرات سوف تبدأ عام ١٩٣٨ من أجل حرب أخرى، وأنها سوف تستمر ثلاث سنوات، وأن إيطاليا ستقف إلى جانب ألمانيا وسيقسط الدكتاتور نتيجة للحرب. وقد صحت هذه النبوءات كلها باستثناء النبوءة بطول الحرب.

إذا كان ما نقله ريل حول نبوءات الرجل الفرنسي صحيحاً ،ولا حاجة، كما يبدو، إلى افتراض العكس، عندئذٍ يبدو أن ذلك الفرنسي يتمتع بقدرة غريبة تتجاوز قدرة الحواس العادية. ومن المتفق عليه أن تلك النبوءات لم تكن كلها دقيقة ولكن تبيَّن أن عدد الصحيح منها يفوق غير الصحيح بهامش ما. وكما رأينا، كانت هناك بعض التفاصيل غير الدقيقة بين النبوءات الدقيقة، ولكن هذا ليس شاذاً في حالات الإدراك المسبق.

تبدو نبوءات الرجل الفرنسي الذي استجوبه ريل خارقة جداً حتى اشتبه في أنها تنطوي على شيء من الخداع. ومال الكثير من المشككين إلى رأي يقول إن رسائل ريل كانت نوعاً من التزوير، وقد كتبت بعد الحرب العالمية الثانية عندما ظهرت كل الحقائق حولها.

ولكن ابن ريل أعلن أن الحقائق الواردة في الرسائل كانت شائعة فعلاً في المنطقة حول أونترمولهاوزن، حيث عاش ريل مدة طويلة قبل الحرب العالمية الثانية. ومن الواضح أنه كان يمكن أن يتهم بالتحيز.

ولكن الدكتور هانس بيندر، من معهد فرليبورغ الألماني، حمل العلماء الشرعيين على دراسة رسائل ريل، فلم يجدوا دليلاً على الخداع أو التغيير. وهناك أشياء أخرى وردت في الرسائل فيما يتعلق بالسجلات تبين أنها صحيحة وحقيقية.

من الواضح أن الرجل الفرنسي ونبوءاته كانا يثيران فضول ريل، قبل أن يكون بالإمكان إثباتها أو دحضها بوقت طويل. فقد استقر للمرة الثانية مصادفة قرب الدير في سيفولشايم، في توركهايم، نحو نهاية الحرب عام ١٩١٨. وحاول أن يعثر على الرجل الفرنسي، ولكن الناس في الدير قالوا له إنه توفي في مطلع السنة نفسها.

وهذا، على الأقل، قدم لبيندر مفتاحاً لحل الأحجية، فراحوا يبحثون في سجلات الأديرة الكبوشية في سيفولشايم والمنطقة المحيطة عن تفاصيل حول راهب فرنسي توفي عام ١٩١٨. ولكن لم يكتشفوا حقيقة أنه كان ينزل ضيفاً على الدير في سيفولشايم وتوفي عام ١٩١٨ قبل وصول ريل في محاولة للعثور عليه.

كان الضيف معروفاً باسم فريتر لايكوس، وباستثناء هذا لم تكن هناك أي معلومات إضافية حوله. ظن البعض أن فريتر لايكوس كان غنياً وهب ثروته للدير، ولهذا سمح له بالإقامة في الدير كضيف رسمي دائم. ومع ذلك، بقي فريتر لايكوس لغزاً.

الناس العاديون:

إضافة إلى ذلك، هناك بضع حالات مشهورة مسجلة للإدراك المسبق المزعوم. ولكن، هناك في الأسر العادية الكثير من الروايات حوله، مع أنها بالتأكيد تقريباً لا تسمى كذلك. ومن الواضح أن هذه الحالات ليست موثقة رسمياً، أو أن تفاصيلها تشوشت بطريق نقل القصة، أو ربما بولغ في تلك التفاصيل وزخرفت من خلال الرواية بمرور الزمن، وفي المقام الأول، يمكن أن تكون زائفة.

ترتبط القصص عادة بالكوارث. وبعضها يرتبط بكوارث كبيرة أصابت بتأثيرها عدداً كبيراً من الناس، وبعضها الآخر يرتبط بكوارث أو نكبات شخصية.

فبعض الأسر تتناقل قصصاً حول غرق الباخرة تيتانيك. ويرتبط معظمها بقريب كان قد حجز مكاناً له على متنها، ولكنه غير تفكيره وخططه بعد أن خامره نوع من هاجس. وينطوي معظم هذه الروايات على شيء من الحقيقة، أو أنها إجمالاً غير صحيحة. فكما ذكرنا آنفاً، فإن عدد الناس الذين ادعوا، حتى في ذلك الوقت، أنهم غيروا رأيهم حول الإبحار بسبب هاجس ما، كان أكبر بكثير من طاقة الباخرة على الاستيعاب. ولا شك في أن عدد الناس الذين ادعوا ذلك قد ازداد خلال السنوات التي تلت حادثة الغرق.

يبدو أن هناك شيئاً جذاباً إلى حد كبير حول الكارثة، على ألا يكون المرء طرفاً فيها. ويبدو أيضاً أنها تسبب عند بعض الناس قشعريرة تربطهم بها. ولهذا نسمع، عندما تتحطم طائرة، العديد من الروايات التي يتناقلها الناس حول أقرباء، أو أصدقاء أو جيران لهم كانوا سيسافرون على متنها لولا أن خالجهم «شعور» جعلهم يغيرون رأيهم ولم يسافروا. يصعب على المرء إلا أن يشك ويسخر من استجابة تنبؤية كهذه، مع أنه يمكن أحياناً أن يكون بين كل هذه الادعاءات الزائفة تقريباً إدعاء صحيح.

إن عدداً كبيراً من الروايات حول الهواجس، والأحلام والرؤى يرتبط بأوضاع عائلية أكثر مما يرتبط بكوارث وطنية. ومن الشائع جداً أن يقتنع الناس بأن هاجساً خامرهم أو حلماً تراءى لهم حول موت قريب لهم أو مقتله. ومن سوء الحظ إنهم غالباً لا يذكرون هذه الحقيقة إلا بعد إعلان الموت ومعرفتهم به.

ولهذا السبب، يمكن أن يشك أحدنا بهذه الروايات ويسخر منها، ولا ريب في أن عدداً كبيراً منها يأتي نتيجة لنبوءات مفترضة وقعت بعد الحادث أو نتيجة لرغبة غريبة في تمثيل دور ما في الكارثة، ومع ذلك، نعود إلى القول إن هناك بعض الأمثلة الصحيحة لقدرة تنبؤية غريبة للعقل بين هذه الروايات.

إن المعرفة صعبة ما لم تكن الحالات موثقة. فهناك مشكلة التأكد من وجود شهود للنبوءة المزعومة قبل وقوع الحادث الذي يرتبط به الهاجس، أو الحلم أو الرؤيا. وأحياناً، يحدث الهاجس أو الرؤيا في وقت قريب جداً من الحادث المتصل بها. فقد يرتبط حلم نراه ليلاً بحادثة تقع في الوقت الذي نحلم فيه. ونعلن ذلك في وقت مبكر من صباح اليوم التالي.

يضاف إلى ذلك، إن الناس الذين يخبُرون هاجساً، أو حلماً أو رؤيا تبدو وكأنها نبوءة بكارثة، هم غالباً قلقون ومتهيجون عاطفياً. وينهمكون جداً بالاتصال بأقربائهم للاطمئنان

عليهم أو لتحذيرهم من كارثة وشيكة محتملة أكثر من انهماكهم بالتفكير حول إيجاد شخص يعمل كشاهد على نبوءتهم.

وفيما يتعلق بأولئك الذين يشعرون بأن هاجساً ما يخامرهم، أو ما يبدو حلماً أو رؤيا تنبوية، فإن الفرصة متوفرة دائماً أمامهم لتوثيق هذا رسمياً بحيث يمكن النظر إليه فيما بعد على ضوء الحوادث المستقبلية المرتبطة بالإدراك المسبق المزعوم. وفي بريطانيا، يمكن تسجيل الهواجس في المكتب البريطاني للهواجس.

يدعي من يديرون هذا المكتب أن لديهم بعض الأدلة على عمل ظاهرة غير عادية. وبيتر فيرلي، وهو واحد من مؤسسي مكتب الهواجس، مسجل على أنه لفت النظر إلى مشكلة حول إثبات وجود شكل من قدرة تنبؤية. وما يحدث هو أنه عند وجود دليل مبكر على أن شخصاً ما يتمتع بقدرة تنبؤية ويبدأ البحث حول ذلك، فإن تلك القدرة تختفي كما يبدو. فهي لا يمكن أن تكون كصنبور الماء نفتحه ونغلقه حسب الطلب. ومن الواضح أن هذا ينطوي على مضامين مهمة بالنسبة للباحثين في المختبرات الذين يحاولون دراسة الهواجس، والرؤى والأحلام الخيالية.

والمشكلة الأخرى التي ترافق الهواجس وترتبط بنشاطات منزلية، تتمثل بعدد الهواجس أو الأحلام التي تبيَّن أنها تتصل بحوادث لم تقع. فمن الشائع لدينا أن تخالجنا مشاعر غريبة أو مشاعر رعب ترتبط بشخص ما أو شيء ما، ثم يتبيَّن أنه لا أساس لها، مع أن النبوءة يمكن أن تشمل سلماً زمنياً طويلاً جداً.

يبدو أن للناس المنحدرين من السلت علاقة بالإدراك المسبق أقوى من الناس الآخرين. ففي مرتفعات اسكتلندا، مثلاً، ليس نادراً أبداً أن تسمع روايات عن نساء يتمتعن، أو يتمتعن فعلاً، بما يعرف بـ «كشف الغيب» أو حتى «الموهبة». وهكذا تكون لدينا صورة لبعض الادعاءات التي تطلق بدلاً من الإدراك المسبق. وهناك شك كبير يتعلق بهذه الظاهرة المفترضة، ولا سيما بين العلماء. ولكن الكثير من الناس العاديين، على الرغم من أنهم قد لا يصدقون النبوءات المزعومة لقراء الحظ المفترضين، يمكن أن يخامرهم شعور بأنها يمكن أن تنطوي على شيء ما، ولا سيما إذا عرفوا شيئاً حول حالات معلنة، كالحالات التي ترتبط بكارثة إيبرفان.

يعمل العلماء اليوم في محاولة لكشف المزيد حول هذه الظاهرة المفترضة. والأحلام واحد من حقول بحثهم.

الأحلام ونوم الريم[1] REM

هناك مشكلة ترافق محاولة مناظرة الأحلام لأننا، على الرغم من أننا جميعاً نحلم، إما أن ننسى عادة أننا حلمنا أو ننسى محتوى الحلم حالما نستيقظ. وقد أظهر البحث العلمي حول النوم والأحلام أن معظم الأحلام الواضحة والمدهشة تحدث أثناء ما يعرف بنوم ريم، والذي يعرف أيضاً بالنوم المتناقض.

أثناء نوم الريم، تندفع العين بسرعة جيئة وذهاباً مع أن الجفنين يبقيان مطبقين. وقد لاحظ العلماء، عن طريق مناظرتهم لأناس نائمين، أن هذا النشاط السريع للعينين يحدث بفواصل زمنية منتظمة على مدى الليل.

ومن الأهمية في مكان بالنسبة لكل من يهتم بالإدراك المسبق عن طريق الأحلام، وفي الواقع بالأحلام بشكل عام، حقيقة أن البحث يشير إلى أنه إذا أيقظنا شخصاً في نهاية فترة نوم الريم، فإنه يكون أكثر ميلاً إلى نقل الحلم مما لو سألناه عند استيقاظه بصورة طبيعية عما إذا كان قد حلم وما إذا كان يتذكر أي تفاصيل. وإذا استيقظ النائم بعد فترة نوم عادي لم تحدث فيه حركة العين السريعة، فإنه يكون أقل ميلاً إلى نقل الحلم، إلا إذا استيقظ خلال الساعة الأولى من النوم قبل الفترة الأولى من حركة العين السريعة، فإنه غالباً ينقل الحلم.

قد يكون لهذا يوماً ما مضامين مهمة بالنسبة للظاهرة الموحاة للحلم الإدراكي المسبق ولكن بحثاً من هذا النوع في الخارق مكلف طبعاً. ويحتمل أيضاً أن يكون بطيئاً جداً بسبب صعوبة تعيين الأشخاص المناسبين وحقيقة أن قلة قليلة جداً من هذه الأحلام يمكن أن تكون إدراكية مسبقة، على الرغم من أن الشخص المناسب يمكن أن يخبُر أحلاماً كثيرة. وكما أشرنا سابقاً في هذا الفصل، فإن الإدراك المسبق المفترض لا يمكن استحضاره عندما نريد. وفي الحقيقة، يبدو أن القدرة الإدراكية المسبقة تتخلى عن الناس إذا خضعوا لظروف المختبر. ويستغل الساخرون هذا استغلالاً تاماً.

المستقبل:

مع أن بعض الناس يحاولون الحصول على المزيد من المعلومات حول الإدراك المسبق عن طريق الأحلام، فإن آخرين يفكرون حول طبيعة الزمن وطبيعة المستقبل. ويرون أن أكثر من

١- REM: اختصار للعبارة الانكليزية Rapid Eye Movements (ومعناها: حركات العين السريعة). ونوم الريم، هو نوم يتميز بحركات العين السريعة، ويحدث هذا أثناء النوم المصحوب بالأحلام -المترجم.

مستقبل واحد قد يكون ممكناً وأن الزمن يمكن أن يتجزأ باستمرار إلى «خطوط زمنية Timelines» مختلفة.

خلاصة:

مع أن عقولنا يمكن أن ترفض حقيقة أنه يمكن التنبؤ بالمستقبل، فإن الحدس عند الكثير من بيننا، وتجربتنا في الحياة أيضاً، يمكن أن يقولا لنا خلاف ذلك.

وكل ما يمكن أن نقوم به فعلاً في الوقت الحاضر، هو التأكد من حقيقة أن هناك عدداً من النبوءات التي أكدها شهود وهي موثقة بصورة جيدة دون وجود علامة تثبت الخداع أو الاحتيال. حتى العلم يؤيد أو يدحض ما يمكن أن نقبله، وإن يكن على مضض، حول أن العقل عند بعض الأشخاص يمكن أن يتمتع بقدرة تنبؤية.

الفصل الرابع

الاستبصار

Clairvoyance

إن كلمة استبصار Clairvoyance مشتقة من الكلمتين الفرنسيتين: Clair-واضح، وVoir-رؤية، ولكنها لا تعني الرؤية الواضحة Sightedness أو البصر الواضح. بل هي، في الواقع، فرع مما يعرف بالإدراك الفوق حسي أو الإدراك خارج الحس، وتتصل بالتخاطر والإدراك المسبق، لأنها القدرة على اكتشاف أو اكتساب المعلومات عن طريق نوع من الإدراك غير الحواس الخمس.

وفي الواقع، كثيراً ما يطلق الناس صفة مستبصر على الشخص الذي يدعي الاعتماد على نوع من القدرات النفسية للتنبؤ بمستقبل أحدهم. وإذا ذهب الناس لاستشارة شخص يدعي القدرة على قراءة المستقبل بواسطة كرة بلورية، أو بأوراق التاروت Tarot، فإنهم يقولون إنهم ذاهبون لاستشارة مستبصر.

يستخدم الاستبصار أحياناً في الإشارة إلى الإدراك المسبق، أي القدرة على رؤية الحوادث التي ستقع في المستقبل. فعلى سبيل المثال، وصف بالمستبصر نوستراداموس، الذي أطلق عدداً كبيراً جداً من النبوءات الشفهية، التي أعلن الكثيرون عن طريق الإدراك المتأخر Hindsight بأنها كانت صحيحة.

ولكن المستقبل والنبوءات ليسا بالضرورة جزءاً من الاستبصار. فالاستبصار، كما ذكرنا أعلاه، هو القدرة على اكتشاف واكتساب المعلومات حول الأشياء-والناس-والحوادث عن طريق الإدراك خارج الحس. وفي هذا الإطار، يتحالف الاستبصار مع التخاطر في كون نقل المعلومات في الاستبصار لا يسير على قاعدة من شخص إلى آخر.

يستشير الناس المستبصرين لعد أسباب ترتبط بقدرتهم المزعومة على رؤية الأشياء والحوادث التي لا يمكن للآخرين أن يدركوها باستخدام حواسهم الطبيعية.

ويسعى الناس إلى المستبصرين رغبة منهم في معرفة شيء ما أو شخص ما أو لمعرفة ما حدث فعلاً في واقعة خاصة.

فقدان الأشخاص

فقدان الأشخاص واحد من حقول الحياة الحديثة التي يعنى بها المستبصرون أحياناً. فكثيراً ما يلتمس استشارتهم أقرباء الشخص المفقود بعد أن يفشلوا في الحصول على معلومات بوسائل أخرى وبعد أن يعتريهم اليأس.

والحقيقة المرة في الحياة اليوم هي اختفاء العديد من الناس دون أن يتركوا نوعاً من رسالة تعلل قرارهم ودون إعطاء أي إشارة حول مكان وجودهم. وكثيراً ما يكون هؤلاء في مرحلة الشباب. ولكن أشخاصاً أكبر سناً يختفون أيضاً ويكونون، على الأغلب، أزواجاً أو زوجات.

وهذا الاختفاء يضع الأقرباء في حالة ممضة. فهم لا يمتلكون الوسيلة التي تساعدهم على معرفة ما حدث لقريبهم المفقود. وربما لم يكن لديهم من قبل أي إشارة إلى أن بعض الأمور لا تسير كما ينبغي أو، على الأقل، تنتهي إلى مثل هذه الحالة المؤلمة.

وفي حالات كثيرة جداً، يخشى الأقرباء عادة من أن يكون الشخص قد اختفى نتيجة لحادث عارض، ولذلك، يلجؤون، بانفعال شديد، إلى الهاتف للاتصال بالشرطة والمستشفيات. وعندما يخفقون في التوصل إلى نتيجة، يعتريهم الخوف من أن يكون الشخص المفقود قد قتل أو اختطف.

إنه لشعور مرعب أن يصل المرء إلى حالة كهذه. حتى الشرطة، لا تكون في وضع يمكن أن تقدم من خلاله المساعدة، ما لم يكن المفقود قاصراً أو ما لم يكن هناك دليل ما على وجود لعبة قذرة خلف اختفائه. فلا شيء في القانون يمنع البالغين من الخروج إذا أرادوا.

والمبررات التي تدفع الأشخاص إلى الاختفاء عديدة. فهم، مع التقدم في العمر، يميلون إلى التغيير. وكثيراً ما يغادر الشباب لأنهم بلا عمل ودون مطامح، ويظنون أنهم سيحصلون على ما يشتهون في مدينة كبيرة، مثل لندن. كان هذا صحيحاً في وقت ما، ولكنه اليوم ليس كذلك، فيصل الكثير من هؤلاء فقط ليجدوا أنفسهم عاطلين ومفلسين ومعرضين للسخرية نتيجة للنوم في العراء.

ويتباهون غالباً بالاتصال هاتفياً بالبيت أو بآبائهم بواسطة الرسائل. إنهم يختفون فقط، ويتركون أهلهم في حالة من القنوط لأنهم ببساطة لا يعرفون سبباً لما حدث. وتبقى أفكار الأهل مركزة على جريمة أو اختطاف.

وهناك غالباً سبب أكثر إيلاماً وأكثر شؤماً. فالشباب يمكن أن يهجروا البيت لعدم قدرتهم على مسايرة آبائهم. وأحياناً يكمن السبب في تعرضهم لسوء المعاملة.

وفي حالة الكبار، يكون الوضع أحياناً أكثر تعقيداً. فبعضهم يغادر لارتباطه بعلاقة أخرى في مكان آخر ولا يجد الشجاعة للاعتراف بذلك. ويغادر آخرون لأنهم لا يستطيعون المواجهة في البيت أو العمل، وبعد أن ينفذ صبرهم. ومن المحزن أن يغادر البعض بعد أن يكون قد أُشعر بأنه فائض عن الحاجة، ويخجل جداً من الاعتراف بذلك إلى الآخرين.

المغزى من كل هذا، الذي قد يبدو في غير محله، هو أن الأقرباء الذين يُحمّلون على متابعة رحيل الشخص المفقود يشعرون بحال من الضياع، ويسترشدون بمعلومات ضئيلة، أو دونها. ويمكن أن يلجؤوا إلى استخدام مخبر سري، ولكن هذا مكلف، وكثيراً ما تكون فرص نجاحه ضئيلة. وهناك أيضاً وكالات، كجيش الخلاص، تحاول أن تقدم المساعدة، كما أن هناك خطوط المساعدة الهاتفية، التي يمكن للمختفي أن يستخدمها لإرسال رسالة لأحد أقربائه دون أن يكشف عن مكان وجوده.

وفي مواجهة هذه الصورة الكئيبة التي لا يعرف فيها مكان الشخص المفقود، وما إذا كان على قيد الحياة، يحاول الأقرباء بذل كل ما يمكن للتوصل إلى مفتاح لحل الأحجية. وفي هذه الحالة، يفكر عدد منهم في التماس المساعدة من المستبصرين، إن لم يكن بعضهم قد لجأ إليهم فعلاً في وقت مبكر بسبب إيمانه بالإدراك خارج الحس.

ولكن، ما الذي يمكن أن يفعله المستبصر؟ يدعي الذين يصفون أنفسهم بالمستبصرين وأولئك الذين يؤمنون بقدراتهم بأنهم قادرون على تقديم دليل حول المكان الذي يحتمل أن يكون الشخص المفقود موجوداً فيه إذا لم يكن بإمكانهم تحديد مكانه فعلاً.

وفي حالات أخرى، يلتمس الناس نصيحة المستبصرين في محاولة للاستفادة من قدرتهم المفترضة على تحديد موضع أشخاص أو أشياء. وتتصل إحدى هذه الحالات بالمحاولات التي يبذلها أطفال مُتَبَنَّوْن للعثور على آبائهم الحقيقيين.

وبسبب التغيير في التشريع، أصبح اليوم تحديد مكان الأم بالولادة، على الأقل، أكثر سهولة. إضافة إلى ذلك، هناك وكالات لتقديم المساعدة والاستشارة. ومع ذلك، هناك حالات لا يتوصل فيها المتبنون إلى نتيجة، وعندئذ يلجؤون أحياناً إلى المستبصرين.

يميل الناس، بشكل عام، إلى السخرية من الاستبصار كما هو شأنهم فيما يتعلق بكل ما يشمله الإدراك خارج الحس أو الخارق. ولا شك في أنه يمكن تسجيل درجة من النجاح لصالح المستبصرين، ولكن بعضهم يدعي أنه حصل على قدر كبير من المعلومات من زبائنه

بالذات عن طريق مهارته في الاستجواب دون أن يعي الزبائن ذلك وأحياناً دون أن يدركوا أنهم يمتلكون تلك المعلومات.

إذا كان هناك شيء اسمه الاستبصار، فإنه قد يكون له أهمية ضخمة بالنسبة لرجال الشرطة في العثور على المفقودين، واكتشاف الجرائم. ويعتقد الناس أن هناك دليلاً على الاستبصار أكبر بكثير مما نشر حتى الآن.

ويظنون أن من يتمتعون بقدرة الاستبصار إما أنهم يحتفظون بأفكارهم لأنفسهم، بسبب الدهشة التي قد تعتريهم، وربما يشعرون بالاضطراب، لأن أفكار المستبصرين تخامرهم، أو ربما يتحدثون بذلك لبضعة أصدقاء مقربين يمكن أن يتعاطفوا معهم أو يسخروا منهم، ولكنهم غالباً ينسون ذلك. ويمكن أن يخبروا أحد ضابط الشرطة المتعاطفين في الجوار، ولكن ربما يحجمون عن ذلك إذا شعروا بأنهم سيوصمون بالجنون. وربما كنا سنسمع المزيد من الأمثلة الناجحة حول الاستبصار، والإدراك المسبق والإدراك خارج الحس، لو حظيت هذه الموضوعات بتغطية إعلامية أفضل.

السيدة فوانيو:

وقعت هذه الحالة عام ١٩٠٤، حيث كان الاستبصار وسيلة للمساعدة في العثور على شخص مفقود أو، على الأصح، جثة رجل مفقود. وترتبط الحالة بالدكتور هارولد مانش بيترسون من كوبنهاغن.

كان يقوم برحلة قصيرة في أوربة وكتب رسالة إلى شقيقته قال فيها إنه في طريقه إلى إيكس ليبان، في جنوب شرق فرنسا. وبعد ذلك لم تسمع عنه شيئاً ولم تره أبداً.

يجب أن يكون الدكتور قد سافر إلى باريس بعد مغادرة إيكس ليبان، ولكن الشرطة الفرنسية لم تتمكن من إيجاد أي أثر له في العاصمة الفرنسية أو تكتشف اي دليل على أنه وصل إلى هناك. وقد ثبت أنه وصل إلى إيكس ليبان وقال إنه سوف يذهب ليتسلق مونت دو شات، وهو أكثر الجبال خطراً في المنطقة. وقد جرى البحث على هذا الجبل والجبال الأخرى في المنطقة ولكن لم يتم العثور على شيء.

تلقى قاض محلي رسالة من مجهول يدعي فيها معرفة حقيقة أن الدكتور قتل فوق جرف على جبل روفار، قرب بقعة يقوم عليها بيت قديم كان يستخدم أحياناً كملجأ للأغنام في الطقس السيء. وجرى البحث اعتماداً على هذه المعلومات ولكن لم يسفر عن شيء.

وعن طريق بعض التحريات البسيطة، اكتشف القاضي أن الرسالة كانت للسيدة فوانيو، وهي زوجة فنان محلي. وعند الاتصال بها، قدمت للشرطة المزيد من التفاصيل، ولكن، على الرغم من ذلك لم يتم العثور على شيء. وبينما كانت السيدة فوانيو وزوجها يخططان للذهاب للبحث بنفسيهما عن جثة الدكتور، عثر مزارع على الجثة في مكان قلما ذهب إليه قبل ذلك. وكانت الجثة ترقد في أسفل الجرف.

كانت البقعة نائية قلما زارها أحد ولم يسبق للسيدة فوانيو أن زارتها. وتبين أن الكثير من التفاصيل التي قدمتها حول طبيعة الموقع الذي وجدت فيه الجثة كانت دقيقة. ومع ذلك، من الصعب أن نعرف كيف أمكنها إعطاء تلك التفاصيل باستخدام الحواس الطبيعية لا غير.

ويقال إن الهولندي، جيرالد كرواسيه، الذي ادعى تمتعه بقدرات استبصارية، ساعد على تحديد مكان جثة صبي كان قد غرق. وبما أنه ساعد أيضاً على كشف إحدى الجرائم، فقد أوردنا تفاصيل نجاحاته المفترضة تحت عنوان «الكشف عن الجرائم».

الكشف عن الجرائم

يمكن أن يكون هناك قدر كبير من التردد حول الموقف من المستبصرين، ولكن هناك حقل واحد حققوا فيه، كما يبدو، بعض النجاح. وهذا الحقل هو الكشف عن الجرائم.

هيركوس:

ربما كان أفضل مستبصر معروف بالكشف عن الجرائم هو دهان المنازل الهولندي بيتر هيركوس. ويبدو أن طاقاته النفسية تمتد بجذورها إلى حادث عرضي تعرض له. ففي عام ١٩٤٣، سقط عن سلم إلى الأرض من ارتفاع ٣٥ قدماً وأصيب بكسر في الجمجمة. ونقل إلى مستشفى زويدفال في هاغيو.

كان هيركوس، لدى قبوله في المستشفى في حالة سبات، وعندما استعاد وعيه، قيل إنه أظهر طاقات غير عادية. ويروى أنه حذر مريضاً، تقرر تخريجه من المستشفى، من المغادرة لأنه سيتعرض لحادث مرعب. وحاول أيضاً أن يستخدم مساعدة الدكتور لوقف الرجل ولكن هذا غادر المستشفى. وزعم هيركوس أنه يعرف أن الرجل عميل بريطاني، مع أنه لم يكتسب هذه المعلومات عن طريق أي وسيلة عادية.

وزعم أيضاً أنه سوف يقتل على يد الغستابو في كالفرشتات في غضون بضعة أيام. وبعد يومين، قتل الرجل فعلاً على يد الغستابو في كالفرشتات.

وإضافة إلى نبوءته بمقتل العميل البريطاني، قيل إن هيركوس أدهش زملاءه المرضى بإخبارهم بأشياء عن أنفسهم لا يمكن أن يكون عرفها من قبل. من البديهي أن المشككين سيقولون إنه يمكن أن يكون اكتشف، على الأقل، بعضاً من هذا من ملاحظات المرضى أو من استنطاقهم بطريقة ذكية وبارعة دون أن يدركوا ذلك.

واستمر يظهر طاقاته غير العادية بعد مغادرته للمستشفى وحاول أن يدخل في تجربة لتحديد أمكنة الأشخاص المفقودين باستخدام طاقاته الاستبصارية المفترضة. ويقال إنه ساعد شرطة سكوتلانديارد في بحثها عن حجر البخت Stone of Distiny.

إن الحجر، الذي كان أصلاً في سكون في اسكتلندة، مقر ملوك اسكتلندة وارتبط بتتويج الملوك، نقل إلى انكلترا من قبل إدوارد الأول ليصبح جزءاً من مراسم التتويج في دير ويستمنستر. وفي عام ١٩٥٠، سرقه القوميون الاسكتلنديون. واسترجع الحجر، ولكن البعض ادعى بأنه ليس الحجر الأصلي.

وبعد ذلك، راح هيركوس يشارك في تفسير بعض الجرائم الأمريكية. ويقال إنه ساعد عام ١٩٥٨ شرطة ميامي في التحري عن جريمتين، إحداهما قتل سائق سيارة أجرة. وبجلوسه في سيارة الرجل المقتول، استطاع أن يقدم للشرطة وصفاً مفصلاً تقريباً للرجل الذي كان يجري البحث عنه.

واستدعي بعد ذلك لمساعدة الشرطة في بوسطن التي كانت تحاول التعرف على هوية قاتل بوسطن، الرجل الذي كان في مطلع ستينيات القرن الماضي يهاجم النساء جنسياً ويقتلهن في بيوتهن. وقيل إنه حتى أفراد الشرطة الذين كانوا في البداية ميالين جداً إلى السخرية حول فرص هيركوس لتقديم أي مساعدة مهمة اعترتهم الدهشة أمام بعض المعلومات التي استطاع تزويدهم بها.

كان هيركوس يستخدم، للحصول على المعلومات، أشياء مختلفة مرتبطة بالجريمة وصوراً لمسرحها. فعلى سبيل المثال، كان يفحص قطع الملابس التي نقلتها الشرطة من مسرح الجريمة.

ويقال إنه، في غضون ذلك، كان يبعث الدهشة في نفوس رجال الشرطة بقدرته على وصف بعض الجرائم بدقة كبيرة كما لو أنه كان حاضراً وقت ارتكاب الجريمة. فكانت معلوماته تؤثر في رجال الشرطة، جزئياً لأنها كانت تحتوي على عناصر تتعلق بجرائم كانوا اكتشفوها سابقاً ولكن تفاصيلها لم تكن بعد قد أعلنت على الملأ. ويبدو أن ليس هناك طريقة يمكن لهيركوس بواسطتها أن يعرف تلك المعلومات بالوسائل الطبيعية.

وضع هيركوس وصفاً مفصلاً لقاتل بوسطن وعيَّن شخصاً اعتبر أنه القاتل مع أن الشرطة كانت مهتمة بشخص آخر. وفي النهاية، اعترف بالجريمة شخص يدعى ألبرت دوسيلفو. وبما أنه كان يمتلك معلومات تتعلق بالجرائم ومسارحها، فإن الشرطة قبلت اعترافه.

إن الكثير من التفاصيل التي قدمها هيركوس للشرطة حول القاتل المحتمل كانت أيضاً تنطبق على دوسيلفو، ولكن هيركوس بقي يُعد أن مشبوهه هو القاتل الحقيقي. ومهما حدث، فإن دوسيلفو لم يذهب إلى المحاكمة لأن الاعتراف كان لطبيب نفساني، وفي ظل قانون ولاية ماساشوستس، فإن المعلومات التي يعطيها مريض إلى طبيب نفساني لا يمكن أن تستخدم ضده في المحكمة.

تم إرسال دوسيلفو إلى السجن بسبب جرائم أخرى ادين بها. ووجد مطعوناً حتى الموت في زنزانته في سجن وولبول في ماساشوسيتس عام ١٩٧٣.

ربما لم يكن هيركوس متفقاً مع الشرطة حول هوية المجرم ولكن لا شك في أنه كان، كما يبدو، مفيداً جداً للشرطة في بحثها. ومن المؤكد أنه ساعدهم على تضييق مجال بحثهم، وأثر كثيراً في أولئك الذين شاهدوه أثناء العمل.

واستدعي المستبصر الهولندي أيضاً للمساعدة فيما يعرف بمذبحة هوليود، التي قتلت فيها شارون تاته، الزوجة الثانية لرومان بولنسكي، مخرج الأفلام البولندي. لم يُستدع هيركوس من قبل الشرطة بل من قبل محام كان صديقاً لضحية أخرى، جاي سيبرنغ.

ويقال إن شرطة لوس آنجلوس تأثرت جداً بهيركوس الذي فتش البيت الذي حدثت فيه الجريمة، فدرس الأشياء وبقع الدم. وقيل إن الكثير مما أخبر به الشرطة حول الجريمة كان دقيقاً ولكنه لم يشر إلى أن امرأة كانت متورطة في الجريمة، كما ثبت فيما بعد. ولم يكن تشارلز مانسون وحده الذي تورط بل أعضاء آخرون من جماعته أو طائفته.

وبما أن هيركوس لم يستدع رسمياً من قبل الشرطة، فإن دوره في قضية مذبحة هوليود لم يكن موثقاً تماماً كما كان في قضية قاتل بوسطن. ومع ذلك، يبدو أنه أثبت في كلتا القضيتين قدرته على جمع المعلومات ووضع الاستنتاجات عن طريق وسيلة أخرى غير الحواس الخمس.

كرواسيه:

يبدو أيضاً أن واحداً من مواطني هيركوس، هو جيرالد كرواسيه، أظهر طاقات استثنائية. فيقال إنه أطلق الكثير من الادعاءات حول معلومات مكتسبة بوسائل خارقة. ويقال إن الكثير منها لم يكن واضحاً تماماً لاتخاذ قرار حولها وأنها لم تكن دقيقة.

ومع ذلك، قيل إنه كان مفيداً، على الأقل، في قضيتين، وكلتاهما تتعلقان بالأطفال فقد أعلن فيهما عن فقدان طفلين ووجدا بعد ذلك ميتين.

الحالة الأولى، بطلها صبي كان قد فُقِد قبل اثني عشر يوماً عندما استدعي كرواسيه للمساعدة فيها، وذلك بعد أن فشلت الشرطة في العثور عليه حياً أو ميتاً. ومن الواضح أن والديه كانا منفعلين بشدة.

قال كرواسيه، المستبصر المفترض، مباشرة إن الصبي قد مات، وأرسل إلى الشرطة رسماً تخمينياً للمنطقة حيث لاقى الصبي حتفه وجاء على وصف دوارة الريح التي كانت مرتبطة بالمنطقة. وذهب إلى هاغيو وحدد المكان الذي ينطبق وصفه على المكان الذي مات فيه الطفل.

ومع أن الشرطة لم تذكر الحقيقة لكرواسيه، فإن رجالها كانوا قد اقتيدوا إلى هنالك بواسطة الكلاب القصاصة الأثر. ولكنهم لم يجدوا شيئاً.

فقال كرواسيه إن الصبي غرق في النهر في تلك البقعة. وتنبأ بأن جثته سوف تطفو خلال أربعة أيام بعد النقطة التي غرق فيها بنحو نصف ميل. وطفت الجثة فعلاً كما تنبأ كرواسيه.

وهناك شيء آخر غريب ارتبط بالحادث. مباشرة، بعد أن أخبر كرواسيه الشرطة بتخمينه حول ما حدث، استخدم رجال الشرطة شبكة البحث عن الغرقى ومسحوا النهر عند البقعة التي ادعى كرواسيه أن الطفل غرق فيها. وسوف تطفو الجثة في البقعة التي تنبأ بها، ولكنهم لم يجدوا شيئاً.

وعلى غرار هيركوس، يبدو أن كرواسيه أثبت في بعض الحالات قدرة غريبة على تحصيل المعلومات حول مكان الأشياء أو الأشخاص ومعرفة التفاصيل حول الحوادث التي حدثت إضافة إلى طاقات الإدراك المسبق. ويبدو أن الطاقات الاستبصارية الظاهرة عند هيركوس قد أثبتت في قضية أخرى بطلها طفل.

فقد طلب للمساعدة في الكشف عن معلومات حول بنت صغيرة كانت قد فقدت فقال كرواسيه مباشرة للشخص الذي اتصل به هاتفياً لطلب المساعدة إن الطفلة ماتت ووصف له المبنى الذي توجد فيه جثتها.

لقد قدم وصفاً مبكراً للمجرم وأعطى تفاصيل إضافية عندما فحص ملابس البنت وبعض الصور الفوتوغرافية المتصلة بالقضية. فجاء وصفه قريباً جداً من الشخص الذي ثبت فيما بعد أنه المجرم، على الرغم من أن بعض التفاصيل لم تكن دقيقة.

قاتل يوركشاير:

هنـاك بعـض الحـالات تجتـذب سلسلة مـن عـروض المساعدة الـتي يقـدمها مستبـصرون مفترضون. وهناك واحدة من هذه الحالات حول حادث فقدان طفل. وأخرى حول قتل بالجملة أو القتل المتتابع.

ومثال القتل المتتابع الذي اجتذب عدداً كبيراً من عروض المساعدة من قبل مستبصرين مفترضين هو الذي اقترفه قاتل في شمال انكلترا وأصبح يعرف باسم قاتل يوركشاير. بدأت عمليات القتل عام ١٩٧٥، وخلال فترة خمس سنوات تقريباً قتلت ثلاث عشرة امرأة، وكان بعضهن من المومسات. وقد قتل الجميع بالطريقة نفسها، حيث كن يُشوَّهن باستخدام مفك براغي لإحداث عدد من الجروح الطعنية.

تعاقد الكثير ممن يدعون طاقات نفسية مع الشرطة أو وسائل الإعلام فيما يتعلق بأوصاف القاتل المفترض. وقد تبيّن أن كل تلك الأوصاف لم تكن تشبه وصف الرجل الذي أدين أخيراً بجرائم القتل. ولكن تبين أن بعض المعلومات التي قدمتها امرأة لمركز الشرطة تحتوي على بعض التفاصيل الدقيقة إلى حد يبعث على الدهشة.

وفي واقع الأمر، لم يتم نشر الرواية حول هذه التفاصيل في الصحف بسبب القيود التي وضعتها الشرطة حول الإعلان المرتبط بالقضية. لقد تنبأت امرأة، تدعى نيلي جونز، بجريمة قتل سوف تحدث يوم ١٧ أو ٢٧ تشرين الثاني من تلك السنة، وقد وقعت جريمة قتل يوم ١٧ تشرين الثاني.

وقدمت أيضاً بعض التفاصيل حول القاتل. فقالت إنه سائق يقود شاحنة تحمل مقصورة السائق فيها اسماً يبدأ بحرف C، وأن اسمه بيتر ويعيش في بريدفورد في البيت رقم ٦، الذي تتكون بواباته من الحديد المطاوع ودرجات تؤدي إلى الباب.

وفي الواقع، تبيَّن فيما بعد أن اسم الرجل الذي أدين كان بيتر، بيتر سَتْكليف. كان سائق شاحنة في شركة كلارك ترانسبورت ويقيم في ٦ غاردن لين في برادفورد، وهو منزل مزود ببوابات من حديد مطاوع ودرجات، كما وصفت نيلي جونز.

من الواضح أن هناك وجوه شبه بين التفاصيل التي قدمتها نيلي جونز والتفاصيل المتعلقة بالمجرم، بيتر ستكليف. وربما كانت هذه التفاصيل ستفيد لو عرفت كما هي حالة روايات الإدراك المسبق، مع أنه من الشائع أن تتضمن هذه الروايات تفاصيل غير دقيقة وأخرى دقيقة. وعلى العكس، كانت هناك وفرة من الروايات التي لم تكن كلها دقيقة لدرجة كان يصعب معها التفريق بين الغنم والماعز، بحيث يمكن معرفة المفيد من التافه.

الاستبصار المتنقل

تشير هذه الظاهرة إلى الادعاء بأن شخصاً ما يمكن أن يقوم نفسياً بـ «زيارة» مكان آخر على المسافة نفسها. وهذا يختلف عن التجربة خارج الجسد من حيث عدم الادعاء بترك الجسد فيزيائياً. ويعرف هذا أيضاً بـ «المشاهدة من بعد». وسنأتي على وصفها في الفصل الخامس: التجربة خارج الجسد.

خلاصة:

إذا درسنا بعض الأمثلة السابقة للاستبصار المفترض، فإننا نجد صعوبة في معرفة كيف أمكن التأكد من كل التفاصيل باستخدام الحواس الخمس العادية، دون ممارسة شكل من الخداع أو الاحتيال، الأمر الذي يبدو غير محتمل في هذه الحالات. وتبدو المصادفة دائماً ممكنة، ولكن يمكن إطلاق العديد جداً من الادعاءات على حساب المصادفة. ويمكن توسيعها إلى حد بعيد.

ماسبب كون حالات الاستبصار المقنعة الناجحة المسجلة قليلة جداً؟ يمكن القول إن هذا يعزى إلى فقدان التوثيق أكثر منه إلى الاستبصار. وإذا أمكن تحسين عملية التوثيق، فربما نرى أيضاً زيادة في معدل الاستبصار الناجح.

ذكرنا سابقاً أن من يدعون خبرة الاستبصار كثيراً ما يلتزمون السرية حولها إلى حد يدعو إلى العجب. ويبدو أنهم يحتفظون بذلك لأنفسهم أو يتحدثون حولها إلى حلقة ضيقة جداً من الأصدقاء، ربما خوفاً من مواجهتم بالتكذيب، أو السخرية أو اتهامهم بالجنون.

وعلى الرغم من وجود أناس يدعون الاستبصار بوجه عام، هنالك نقطة أخرى هي أنه من المحتمل أن تكون الحالة، كما في حالة خبرات الإدراك المسبق، حيث يمكن أن يتمتع أحدهم بخبرات استبصارية مزعومة قليلة جداً في حياته-أو حتى بواحدة لا غير.

والقدرة على تحديد مكان الأشياء والناس بواسطة حاسة غير الحواس العادية والقدرة على معرفة المزيد حول الحوادث التي وقعت تقدم مساعدة ضخمة للجميع، ولا سيما لأفراد الشرطة. وفي الواقع، إذا أمكن مزاوجة هذه القدرة مع الإجراءات الحديثة للتحري، كفحص الدنا[1] DNA وبصمات الأصابع، فإنه يمكن الكشف عن عدد أكبر بكثير من الجرائم الخطيرة.

١- الحمض النووي الريبي المنقوص الأكسجين، وهو العنصر الأساسي في الجينة أو المورثة -المترجم.

إذا كان الاستبصار يتميز بقدرة غريبة على الكشف واكتساب المعلومات التي يجهلها الآخرون، فما مصدر تلك القدرة؟ الجواب غير معروف حتى الآن. وكل ما نعرفه اليوم هو أن قلة من الناس، كما يبدو، وربما أكثر مما نظن، يتمتعون بطاقة عقلية لا يمكن إدراكها تماماً.

الفصل الخامس

تجارب خارج الجسد

يتناقل الناس أخباراً كثيرة جداً حول ما يعرف بالتجارب خارج الجسد إلى حد يصعب معه عدم التصديق بأنها كلها لا تساوي شيئاً، وأن أي شخص ممن يدعون الخبرة بواحدة من هذه التجارب يجب أن يكون قد لفقها. والتجربة خارج الجسد، كما يبدو، تجربة يحدث فيها انفصال بين الجسد الفيزيائي والجزء غير المحسوس عند الفرد.

ويطلق على هذا الجزء غير المحسوس عدد من التسميات، كالعقل، أو الوعي أو الروح. وكثيراً ما يسميه المهتمون بالمسائل النفسية الجسد الروحي. وأياً كانت التسمية التي نطلقها عليه، فإنه يمثل ذاتنا الباطنية لا ذاتنا الخارجية، وليس كالجسد الفيزيائي.

ويتحدث الأشخاص الذين يدعون تجارب خارج الجسد حول أنهم يشعرون فجأة بأنفسهم ترتفع إلى الجو. ثم ينظرون إلى ما تحت انفسهم وبقية المشهد في الأسفل. ويكون هؤلاء غالباً نائمين أو مخدرين عندما تحدث هذه التجارب ولكن هذا غير صحيح دائماً.

ويزعم بعضهم أنه شعر بإحساس غريب في أطرافه قبل حدوث التجربة، في حين يذكر آخرون أنهم عرفوا ضغطاً كبيراً حول رؤوسهم. وشعر بعضهم، بعد هذا الضغط، وكأنه يحلق بعيداً، بينما يزعم آخرون أنهم دخلوا نفقاً مظلماً قبل التحليق.

والمهم هو مدى التفصيل الذي يتذكره الشخص بعد التجربة التي يدّعيها. فالبعض يعلق على أنه لاحظ أشياء في أعلى خزانة ملابسه بعد أن نسي أنها كانت هناك. ويتحدث آخرون عن ملاحظتهم لأول مرة للنقش الزخرفي على غطاء السرير أو السجادة، أو عن مدى افتقار كدس الأحذية في الزاوية إلى الترتيب.

تزعم أودري بورنيه، التي سنأتي على وصف تجربتها في مكان لاحق من هذا الفصل تحت عنوان الألم والتجربة خارج الجسد، أنها حينما كانت خارج جسدها استطاعت أن ترى بقعة جرداء من الشعر في أعلى رأسها ولم تكن تعرف بوجودها. وعندما عادت إلى جسدها وعادت إلى البيت، حدقت في المرآة وتأكدت من وجود تلك البقعة في رأسها.

التجارب من خارج الجسد ليست نادرة، على خلاف بعض الحالات التي يبدو فيها العقل مقيداً. ففي كتابهما، شرح غير المشروح (١٩٩٣)، يزعم هانس ج. آيسنك وكارل سيرجنت أن الدراسات تشير إلى أن نحو ١٠-٢٠٪ من إجمالي السكان يزعمون أنهم عرفوا، على الأقل، تجربة واحدة خارج الجسد في مرحلة ما من حياتهم. وهناك، كما يبدو، شيء من الجدل حول الأرقام والنسب الفعلية، لأن روبين ستون، في كتابه أسرار العقل (١٩٩٣)، يشير إلى حقيقة أن شخصاً واحداً من بين كل أربعة مدعين عرف، على الأقل، تجربة واحدة خارج الجسد خلال حياته.

وأياً كان الرقم الحقيقي، يبدو أن عدداً مهماً من بيننا ادعى تجربة خارج الجسد. علاوة على ذلك، يدعي بعض الناس أنهم عرفوا تلك التجربة مراراً.

تجارب الاقتراب من الموت:

إن الكثير من التجارب من خارج الجسد يمكن تصنيفها أيضاً كتجارب اقتراب من الموت. ويبدو هنا أن العقل، أو الروح أو الجسد الروحي يغادر الجسد الفيزيائي، في أوقات الخطر الشديد على الحياة أو حتى في الوقت الذي «يموت» الشخص المعني لفترة قصيرة ثم يعود إلى الحياة.

والحقيقة هي أنه كانت هناك، كما يبدو، زيادة في عدد تجارب الاقتراب من الموت أو حقيقة أنه كانت هناك زيادة في عدد من يعرفون أشخاصاً يدعون أنهم عرفوا ظاهرة يمكن عزوها إلى التقنيات الحديثة للإنعاش. وتنتج بعض هذه الظواهر من التقنية الحديثة في علم الطب والبعض الآخر من الوعي الحديث لما يمكن فعله للمحافظة على حياة الناس، وهو نوع من انتشار مبادئ الإسعاف الأولي.

هناك تشابه مدهش في الروايات المختلفة التي يسردها الأشخاص عن تجارب اقترابهم من الموت. فما كل الروايات تغطي كل الجوانب ولكن أكثرها يغطيها.

يتحدث من عرفوا تجارب الاقتراب من الموت عن مدى صعوبة وصف التجربة بدقة. فهم يتحدثون كيف وجدوا أنفسهم فجأة فوق أجسامهم، ينظرون إليها إما أثناء تمددهم في غرفة العمليات، على سرير المستشفى، أو وهم يُسَجَّوْن «موتى» أثناء الإنعاش أو بعده مباشرة. أما الإحساس الذي يخبُرونه اثناء شعورهم بأنهم منفصلون عن أجسادهم، فيعلقون عليه غالباً بشيء من الدهشة أو حتى عدم التصديق.

وكثيراً ما يقولون إنهم شعروا، رغم غيابهم عن الوعي في ذلك الوقت، كما لو كانوا يعون، إلى حد رائع، ما كان يجري حولهم في مرحلة ما من تجارب اقترابهم من الموت. ويحدثك بعضهم عن الأشخاص الذين كانوا يقفون حولهم أثناء عملية الإنعاش. ويتحدث آخرون حول سماعهم الأطباء يتحدثون في غرفة العمليات.

ويتحدث الأشخاص في الكثير من روايات تجارب الاقتراب من الموت عن سيرهم، بسرعة عادة، نزولاً في نفق طويل مظلم، بعد أن يكونوا قد تركوا أجسادهم خلفهم. والإحساس بهدوء وسلام كبيرين مركزي في العديد من الروايات. وكثيراً ما يتحدثون عن أصوات غريبة أو ضجيج من طبيعة رنانة، أو أزّة أو صافرة، ليست دائماً ممتعة بأي حال.

ويتحدث الكثير من الأشخاص عن رؤيتهم في نهاية النفق لأعضاء الأسرة أو الأصدقاء، أو حتى أناساً لا يعرفونهم تماماً، وماتوا قبل ذلك. ويظهر هؤلاء الناس غالباً، ولكن ليس دائماً، باشكال بشرية عادية لا بالأشكال التي نتخليها عن الأرواح. ويشعر بعض الأشخاص بأن هؤلاء الناس الذين يحيونهم عند نهاية النفق سيقودنهم إلى مكان آخر.

ولكن الناس أحياناً لا يتحدثون عن قريب أو صديق يرشدهم بل كائن ودود مغمور بالنور. ويمكن أيضاً أن يحاول هذا الكائن أن يقودهم إلى مكان ما أو يمكن أن يُظهر لقطات من الحياة الماضية للأشخاص المعنيين. وكثيراً ما يرد ذكر كمية كبيرة من النور والبياض.

وكثيراً ما يتم الحديث عن نوع من حاجز، وهو الحاجز بين الحياة والموت. وهذا يشير ضمناً إلى أنه إذا اجتاز الشخص في منتصف تجربة اقترابه من الموت الحاجز المذكور، فإنه سوف يفقد الحياة وهذا العالم، وربما ينتقل إلى عالم آخر. وإذا ارتد عن الحاجز، فإن الحياة كما تُعرَف تبقى ويعود إلى حياته السابقة.

وفي العديد من الحالات، يقوم الكائن المغمور بالنور أو ذلك النوع من الواسطة بحث الشخص على العودة إلى الحياة، أو حتى إعطاء الانطباع بإرجاء الموت. وفي الكثير من هذه الحالات، يشعر الشخص الذي يمر بتجربة الاقتراب من الموت بحس المسؤولية تجاه شخص ما يزال على قيد الحياة-على سبيل المثال، طفل سيبقى يتيماً ووحيداً إذا مات الشخص.

في البداية أو، على الأقل، عندما يكونون ما زالوا في قبضة تجربة الاقتراب من الموت، يتحدث الأشخاص عن شعورهم بإحساس الخسارة أو الحزن لدى ارتدادهم عن الحاجز. ويضعف هذا الإحساس ويختفي عندما يخرجون من تجربة الاقتراب من الموت ويعودون إلى الحياة، من جديد.

كثيراً ما يتحدث الأشخاص الذين يدخلون تجارب الاقتراب من الموت حول تأثير هذه التجارب على الباقي من حياتهم. وحتى أولئك الذين كانوا يخافون كثيراً من الاحتضار والموت يتخلصون، كما يبدو، من هذا الخوف وينظرون إلى احتمال الموت بإحساس عميق من الهدوء. وفي الواقع، يتحدث بعضهم عن انخفاض عام في مستويات القلق والخوف، وكأن تجاربهم تجعلهم أكثر قدرة على مواجهة الحياة ويصبحون أكثر استرخاء وأكثر حكمة.

ويكررون الحديث عن زيادة الاهتمام بمراعاة الآخرين. حتى أن بعضهم يلجأ إلى تبديل أسلوب حياته كلياً لأنه يشعر أن حياته حتى الآن كانت دون مغزى ويسعى إلى أسلوب أكثر قيمة ومغزى في الحياة.

وعند بداية خروجهم من تجارب الاقتراب من الموت أو، على الأقل، بعد شفائهم من الحالة التي أدت بهم إلى تلك التجارب، يشعرون غالباً بنوع من حاجة ملحة إلى التحدث عن تلك التجارب. ولكن هذا سرعان ما يزول، إذا وضعنا في اعتبارنا ردود الفعل المكذبة أو المشككة التي تولدها رواياتهم عند الآخرين. أما إذا أرادوا للروايات حول جنونهم ألا تنتشر بحرية في الجوار، فإنهم يتوقفون حالاً عن التحدث حول تجاربهم. هذه المسألة مؤسفة، ليس لأنها فقط تثبط الناس عن التعبير عن مشاعرهم، بل أيضاً لأنها تقلص عدد التجارب قرب الموت إلى أقل مما هو في الواقع.

كان طبيب القلب الأمريكي، الدكتور ميشيل سيبورم، يشك في مرضاه وتجارب اقترابهم من الموت. وفي كتابه، ذكريات الموت (١٩٨٢)، يسرد كيف بدل تفكيره. فقد اكتشف، عندما حاول في البداية حمل مرضاه على التحدث معه حولها، أن هناك نفوراً ملحوظاً من التحدث حول الموضوع. وظهر فيما بعد أن هذا حدث لأن الكثير منهم كان يشعر بأن العضو في المهنة الطبية يُعد الروايات حول تجارب قرب الموت هراء أو يعتقد أن مرضاه يهلوسون.

عندما قرر الدكتور سيبورم أن يسأل مرضاه حول الموضوع، فإنه فعل ذلك بطريقة سريرية حذرة، بالطريقة نفسها التي يستخدمها للحصول على تفاصيل القصص المرضية. وحاول اتخاذ جانب الحذر لكي لا يقدم للمريض أي تلميح عن شكوكه.

وعلى أي حال، عندما واصل مقابلته لأشخاص تحقق لهم الشفاء من هجمات قلبية خطيرة أو من حالات مهددة للحياة، كتوقف القلب أثناء جراحة كبرى، كان يجد نفسه مجبراً على تغيير تفكيره. فقد اكتشف أن نسبة مهمة من الأشخاص ممن تعرضوا لمثل هذه

الحالات المهددة للحياة، والذين «ماتوا» مؤقتاً في بعض الحالات، قدموا تفاصيل حول ما يبدو أنها تجارب اقتراب من الموت.

من الصعب جداً تعليل تجارب الاقتراب من الموت وإظهار مدى وجودها. ومن المغري أيضاً البحث حول نوع من رد الفعل المنطقي لتعليلها.

وهكذا، رأى البعض أنه يمكن عزو تجارب الاقتراب من الموت إلى أدوية التخدير أو أدوية أخرى، لا سيما وأن بعض هذه الأدوية يمكن أن يمارس تأثيرات جانبية هلاسية. وفي الواقع، تحدث بعض الأشخاص عن نزولهم في نفق عندما تعرضوا لتبنيج سني. ولكن هذه النظرية اصطدمت بمشكلة قديمة.

ربما يكون مقبولاً تعليل تجارب الاقتراب من الموت التي تحدث أثناء العمليات الجراحية، مع أن الأشخاص الذين يخضعون للتبنيج دون أن يتحدثوا عن نفق أو أي تأثيرات أخرى أكثر ممن يتحدثون عن تلك التجارب. ومع ذلك، انتشر الحديث حول عدد من تلك التجارب التي دخلها أشخاص مباشرة أثناء هجمة قلبية وربما خلال مرحلة الإنماش. وهكذا، لا نجد أثراً لمشاركة العقاقير في الكثير من الحالات.

ورأى آخرون أيضاً أن تجارب الاقتراب من الموت هي ببساطة استجابة نفسية لرضح فيزيائي أو طبي، ومع ذلك، فإن هذه الفكرة غامضة جداً. وهناك نظرية بديلة تقول إن التجربة تأتي نتيجة لنفاد مدد الأكسجين إلى الدماغ.

ومع أن هذا النفاد يبدو ممكناً في بعض الحالات، فإنه، في الواقع، غير ممكن في الحالات التي تحدث أثناء العمليات الجراحية لأن مناطرة مدد الأكسجين تتم بعناية شديدة. ثم إنه إذا كان نفاد الأكسجين شديداً جداً، كأن يؤدي إلى رد فعل مشؤوم، فلماذا لا يُظهر الشخص، فيما بعد، علامة على ضعف عقلي.

وهناك من يرى أن تجارب قرب الموت تنتج، بطريقة ما، عن إطلاق الدماغ مواد كيميائية تسمى الإندومورفينات Endomorphins. ولا شك في أن إطلاق هذه المواد من الدماغ يمكن أن يكون عاملاً في حالات أخرى كتلك التي يتمتع فيها العقل بقدر كبير من التحكم في الجسد، ككبح الألم، ولكن لا يوجد دليل حتى الآن يثبت أن هذا صحيح في تجارب الاقتراب من الموت.

وترى نظرية أخرى أن تجارب الاقتراب من الموت هي نوع من إنجاز رَغْبيّ، أي نتيجة لإيمان بعض الأشخاص بالأمنية المسيحية في تحقيق أحلامهم السماوية. ولكن هذه النظرية تصطدم باعتراض فوري: الحقيقة هي أنه ليس المسيحيون المؤمنون فقط هم الذين يدخلون

هذه التجارب-الكثير ممن يدخلونها لا يذكرون أي جانب سماوي من تلك التي تُعد عادية، كالملائكة بأجنحتهم المرفرفة وقيثارتهم العازفة. ثم إن الناس من أتباع الديانات الأخرى، ومنهم اللاأدريون[1]، وكذلك الملحدون يتحدثون أيضاً عن دخول هذا النوع من التجربة.

وأخيراً، ارتأى البعض أن الأشخاص الذين يخوضون مناوشات مع الموت يدَّعون دخولهم تجارب قرب الموت لأنهم سمعوا عنها ويعرفون كل تفاصيلها من أشخاص آخرين. ولكن الدكتور ميشيل سيبورم، الذي ذكرنا كتابه آنفاً، اكتشف أن نسبة مهمة جداً من المرضى الذين لم يدَّعوا دخول التجربة، وهي أعلى من نسبة من ادَّعوا دخولها، قالوا إنهم دخلوا التجربة في وقت ما قبل الحوادث التي هددت حياتهم.

إن كل النظريات التي استعرضناها حتى الآن تبدو غير مقنعة. ونظراً لوجود عدد كبير جداً من الروايات حول تجارب الاقتراب من الموت، فإنه من المحتمل أن يتواصل البحث حولها. وما يبدو، حتى الآن، هو أن العقل، وربما الخيال، أو الروح، يتمتعان بقدرة غريبة.

الألم وتجارب خارج الجسد:

إن تجارب خارج الجسد لا تقتضي بالضرورة مرضاً شديداً أو تجارب اقتراب من الموت. ولكن عوامل أخرى في الحياة يمكن أن تسبب حالة، أي تجربة خارج الجسد، دون الكثير من التفاصيل التي تميز تجارب الاقتراب من الموت. والألم الشديد هو أحد هذه العوامل التي يزعمون أنها تقدح تجربة خارج الجسد. فقد كتب روبين ستون في كتابه أسرار العقل (١٩٩٣)، حول كيف أشارت أوديت، العميلة البريطانية، التي أسرها الغستابو وعذبها أثناء الحرب العالمية الثانية، إلى قدرتها على دخول تجارب خارج الجسد عندما كان ألم التعذيب يبلغ مستوى من الشدة يصعب معه تحمله. فكانت قادرة على التحليق فوق جسدها ومراقبة الآسرين أثناء عملهم. ويشير ستون إلى حقيقة أنها كانت حينئذ تتحرر من الأحاسيس الفيزيائية، ولهذا السبب، لم تكن تشعر بالألم المبرح الذي يبتليها.

ويقول أناس آخرون ادعوا دخولهم تجارب خارج الجسد بأنهم شعروا بألم شديد عندما دخلوها. فضحايا حوادث السير الذين يتعرضون لإصابات بالغة ويشعرون بألم لا يمكن تحمله أثناء انتظار سيارات الإسعاف، يتحدثون أحياناً حول أنهم يجدون أنفسهم فجأة ينظرون تحتهم إلى أنفسهم. وكثيراً أيضاً ما يعلقون على رؤيتهم لأناس آخرين واقفين أو متمددين حولهم،

١- من ينكرون قيمة العقل وقدرته على المعرفة بشكل عام أو معرفة المطلق بشكل خاص -المترجم.

وأشخاص مصابين، وآخرين ينتظرون المعالجة، ورجال شرطة يوجهون حركة السير حول مسرح الحادث وغيلان Ghouls توقفت لكي تراقب.

ويدعي الضحايا الذين يتعرضون لإصابات أو حروق شديدة في انفجار أو حريق بأنهم يدخلون تجارب خارج الجسد. فقد تحدث بعضهم حول نقله من المبنى المنهار أو المحترق على نقالة، وهو يشعر بألم مبرح، ثم شعر فجأة أنه أصبح في الأعلى يراقب المشهد تحته، فرأى رجال الإطفاء والشرطة يحاولون التعامل مع الوضع.

وسجل ستون في أسرار العقل عن إدّ موريل، وهو سجين في إصلاحية ولاية أريزونا، وهي الحالة التي تُعد الأشد عنفاً في أمريكا. ويشير موريل، الذي وضع كتاباً حول تجاربه بعنوان الرجل الخامس والعشرون، إلى بعض العذابات التي تعرض لها. ومن هذه العذابات الأكثر وحشية ربطه داخل ثوبين من ثياب المساجين وصب الماء عليه لكي ينكمش الثوبان، مما يسبب المزيد من الألم ويصف هذه التجربة بأنها «عصر بطيء حتى الموت».

ويدعي موريل أن وسيلته لمواجهة هذه التجارب المريرة كانت الدخول في تجارب خارج الجسد. في هذه التجارب، كان قادراً ليس فقط على التحليق فوق جسده والنظر إليه تحته وهو يتعرض لتعذيب مبرح بل كان قادراً أن يسافر من زنزانته حول السجن وإلى مكان أبعد. ويسمى هذا أحياناً «السفر الروحي» وسنعالج هذا الموضوع بعد قليل.

يكتب جون سبنسر في كتابه الخارق-منظور حديث (١٩٩٢) حول تجربة امرأة، هي أودري بورنيه، عانت من ألم كبير بسبب خضوعها لفحص نسائي داخلي كريه في لندن عام ١٩٨٤. وكما ادعى آخرون قبلها، زعمت أنها خرجت من جسدها وحلقت.

ولكن روايتها تختلف عن الروايات التي أتينا على دراستها. ففي روايات أخرى ادعى أناس أنهم دخلوا تجارب خارج الجسد، رأوا أنفسهم متمددين أو، على الأقل، خاملين.

وصفت أودري بورنيه كيف رأت نفسها تمشي في الشارع وتعبر الطريق، مراعية كل الاحتياطات المألوفة.

وهذا يطرح، كما أشار سبنسر، نقطة مهمة حول ترك الجسد في المكان في التجارب خارج الجسد. فإذا كان الجسد ممدداً على السرير لا غير ولا يقوم بأي نشاط، وإذا كنا لا نؤمن بأي شيء من هذا كله، عندئذ يمكن الافتراض بأنه لا حاجة للعقل، أو الجسد الروحي، الذي يفترض أن يكون في الأعلى ينظر إلى الجسد في الأسفل.

ولكن، في حالة أودري بورنيه يبدو أن جسدها واصل تجواله وهو يقوم بنشاطاته العادية ويفترض أنها كانت بحاجة إلى عقلها لمساعدتها على عبور طريق مزدحم. وكان كل

من العقل، أو الجسد الروحي ما يزال يتحكم بالجسد من أعلى أو أن يكون بعض من العقل تخلف هناك، إذا أردنا ان نصدق رواية أودري بورنيه حول تجربتها خارج جسدها.

ومن هنا، فإن التجارب خارج الجسد المزعومة كثيراً ما تبدو استجابة للألم. وفي الواقع، تبدو هذه التجارب، في عدد من الحالات، كوسيلة يستخدمها من يتعرضون للألم لتحرير أنفسهم من الكرب. وكما رأينا في مكان سابق في هذا الفصل، فإن بعض الناس يدّعون القدرة على دخول تلك التجارب عندما يشاؤون. ومن الواضح، أن المعاناة المؤلمة على نحو مميز هي الوقت المناسب لدخولها، إذا كانت هناك إمكان لذلك فعلاً.

احلام اليقظة وتجارب خارج الجسد:

ما كل من ادعى دخول تجارب خارج الجسد دخلها استجابة للألم. فالبعض يتحدث عن دخولها استجابة للملل. وهناك روايات لأشخاص كانوا يشعرون بملل شديد أثناء العمل لدرجة أنهم كانوا يجلسون ويحدقون في الفراغ فيخالجهم شعور بالتحليق فوق أنفسهم ثم ينظرون إليها تحتهم وهم ما يزالون جالسين في كراسيهم-ويتابعون التحديق في الفراغ.

ربما تكون هذه مهارة يتوجب على الجميع أن يحاولوا تنميتها. إنها طريقة رائعة للتخلص من لقاءات مملة جداً دون مغادرة الغرفة جسدياً والظهور بمظهر الوقاحة. إن الإحساس بالاسترخاء يؤدي إلى بعض الحالات المزعومة للتجربة خارج الجسد. وقد تحدث أشخاص حول أنهم دخلوا هذه التجربة أثناء تمددهم على أريكة، يستمعون إلى الموسيقا ولا يفكرون بشيء إلا في حالة الاسترخاء الممتع.

ويتحدث آخرون عن دخول تلك التجارب نتيجة لتناول العقاقير. ففي أسرار العقل الذي أشرنا إليه في مكان سابق من هذا الفصل، يتحدث ستون حول البحث الذي أشرف عليه الدكتور تشارلز تارت، وهو عالم نفسي. ففي عام ١٩٧١، أنجز تارت دراسة حول ١٥٠ شخصاً يدخنون الماريجوانا بانتظام واكتشف أن ٤٤٪ منهم دخلوا تجارب من خارج الجسد تحت تأثير العقار. وهذه النسبة أعلى بكثير منها عند السكان بشكل عام، مع أنها تتفاوت بدرجة مهمة، كما بيّنا في مكان سابق من هذا الفصل.

دخول تجربة خارج الجسد حسب الرغبة:

يزعم البعض أنه يمكن تحريض تجربة خارج الجسد حسب الرغبة، وإن يكن بقليل من الممارسة. وقد وردت إحدى الطرق المقترحة في كتاب بروز الجسد الروحي (١٩٩٢)، لمؤلفه سيلفان مولدوم، وتقضي هذه الطريقة بأن يكون الشخص عطشاً قبل انسحابه إلى السرير،

وأن يمضي إلى النوم وهو يتخيل أنه ذاهب إلى المطبخ ليشرب الماء ويأمر نفسه بالاستيقاظ خارج الجسد عندما يكون على المغسلة.

يتحدث جون سبنسر في كتابه، الخارق-منظور حديث- حول نصيحة قدمها روبرت مونرو الذي يدعي بأنه درب نفسه على الدخول في تجارب خارج الجسد والانتقال إلى السفر الروحي (انظر ما يلي). ويسجل عدة شواخص، يشبه بعضها النصيحة التي تعطى لتحقيق التأمل.

إن الأشخاص الذين يدّعون القدرة على تحريض تجارب خارج الجسد عندما يريدون يدّعون أيضاً أنهم روحانيون. وقد تم استخدام هؤلاء الأشخاص في بحث من النوع الذي أنجزه الكتور تشارلز تارت، الذي ذكرناه أعلاه.

قد لا يكون مستحسناً أن نحاول تحريض تجربة خارج الجسد حسب الرغبة، ويفضل أن ننتظر حدوث التجربة بصورة طبيعية.

السفر الروحي:

فيما يعرف أحياناً بالسفر الروحي، لا يبقى الشخص الذي يدعي تجربة خارج الجسد البقاء في الفراغ فوق جسده بل يسافر حول المنطقة وحتى إلى مكان أبعد. ويقال إن هذا حدث في حالة إدّ موريل، التي تحدثنا عنها تحت عنوان «الألم وتجربة خارج الجسد».

وتحدث أشخاص آخرون حول أنهم وجدوا أنفسهم يسافرون فوق البلدات والمدن، ينظرون إلى أسطح المنازل والمشاهد تحتهم. وتحدث بعض الأشخاص الذين دخلوا تجارب خارج الجسد وهم يتمددون في أسرّتهم لا يفعلون شيئاً عند دخولهم تلك التجارب التي تتضمن الانتقال حول المستشفى وحتى الاستماع إلى الأحاديث.

ويشير روبر ستون في كتابه أسرار العقل (١٩٩٣) إلى ادعاء أطلقته الوسيطة الأمريكية إيلين غاريت في سيرتها الذاتية، حول أنها نجحت في دخول تجربة خارج الجسد، «زارت» خلالها طبيباً كان يعيش في نيوفاوندلاند من نيويورك حيث كانت تعيش هي نفسها. وتزعم أنها شاهدت الدكتور معصب الرأس ولاحظت عدداً من الأشياء المختلفة على طاولته.

وعند عودتها إلى نيويورك وإلى جسدها، سجلت غاريت تفاصيل الأشياء التي لاحظتها وأرسلت الرسالة إلى الطبيب. وبدوره، أرسل الطبيب برقية يؤكد دقة ما قالته في رسالتها.

هذا غريب حقاً، وأغرب منه أن الطبيب، في الواقع، كان قد طلب من غاريت أن «تزوره». فقد زعم فعلاً أنه يعرف أنها كانت هناك حتى أنه فتح كتاباً لكي تتمكن من قراءة الصفحة.

المشاهدة من بعد:

من الصعب تعليل هذه الرواية إذا كانت صحيحة. ويشير ستون إلى أن غاريت كانت تُعد روحانية بدرجة استثنائية، لأنها كانت من أكثر الوسطاء الذين وجدوا مهارة وأن طبيب نيوفاونلاند كان أيضاً روحانياً. ويرى أن «زيارة» غاريت يمكن أن تكون مثالاً لـ «المشاهدة من بعد» أو «الاستبصار المتنقل» وأن ما كان هناك لم يكن عقلها، أو روحها أو جسدها الروحي بل كانت هناك فيزيائياً.

وصفت بتي شاين المشاهدة من بعد في كتابها الموجات العقلية (١٩٩٣). فقد وصفت فيه كيف كانت قادرة على «زيارة» أسرتها عندما تم إجلاؤها عن لندن خلال الحرب العالمية الثانية وعاشت في منطقة نائية إلى حد ما وهي تشعر بالوحدة والحنين إلى البلد. وكيف كانت تستطيع أن تتخيل نفسها جالسة إلى الموقد وترى الكعك وتشم رائحته.

وفيما بعد، وبعد قدر كبير من التمرين، توفرت لها المهارة في فن المشاهدة من بعد. وتتحدث حول قدرتها وابنتها، عندما كانتا تعيشان في منطقة نائية في أسبانيا، على حمل عقلهما على السفر إلى أقرب قرية لـ «رؤية» ما يفعله أصدقاؤهما.

لقد عنفت العلماء من أجل تفسيراتهم «المحزنة» لـ «المشاهدة من بعد» وتقول إنهم لا يستطيعون دخول تجارب متعددة الأبعاد أو يبدؤون بفهمها لأن عقولهم مغلقة. وفي وصفها للمشاهدة من بعد، تتحدث شراين حول التحكم بالطاقة العقلية والتوصل إلى إدراك أن «العقل يمكن أن يسافر».

خلاصة:

ربما يكون من الصعب أيضاً بالنسبة لمعظمنا أن يفهم المشاهدة من بعد. ولكن، من الصعب أيضاً تجاهل كامل مسألة تجارب خارج الجسد أو، أكثر من ذلك، تجاهل كامل مسألة تجارب الاقتراب من الموت. وهناك الكثير جداً من الحالات المعروفة والموثقة التي يصعب معها القول بأن ليس هناك شيء في ظاهرة تجارب خارج الجسد وتجارب الاقتراب من الموت، حتى وإن لم نكن في وضع يساعدنا على فهم كيف تحدث.

وربما يتوصل العلم يوماً إلى بعض الأجوبة، والمبررات والأسباب. وحتى ذلك الوقت، تواجهنا فكرة أن العقل قوي جداً حتى أنه يمكن أن يفصل نفسه عن الجسد، وربما يترك قدراً من السيطرة العقلية مع الجسد الفيزيائي لكي يواصل وظيفته.

الفصل السادس

الحركة النفسانية

الحركة النفسانية هي القدرة الظاهرية التي يمارسها أحدهم للتأثير على أناس آخرين، أو على أشياء أو حوادث بمجهود الإرادة ولا تقتضي أي قوة فيزيائية معروفة. وبمعنى آخر، يقال إن العقل البشري قادر على التأثير على الناس، والأشياء والحوادث بتوجيه من الإرادة. ويبدو أن بعض الأشخاص يتمتعون بالقدرة على السيطرة على العمليات الفيزيائية بالقدرة الصرف للعقل. وتسمى الحركة النفسانية أحياناً بـ «التحريك البُعدي Telekinesis» أو «العقل فوق المادة».

ليّ المعادن

ليُّ المعادن مثال للحركة النفسانية المفترضة التي حظيت بقدر كبير من اهتمام وسائل الإعلام في العصور الحديثة نسبياً. وفي هذا، يحاول الشخص الذي يزعم أنه يتمتع بموهبة الحركة النفسانية أن يلوي أشياء معدنية دون ممارسة أي قوة عليها. فيبدأ تلوي المعدن. فإنهم يزعمون أن قدرة العقل عند الشخص هي التي سببت ذلك.

ليّ المعادن ليس جديداً. فالعلماء، من أمثال الكيميائي ميشيل فراداي (١٧٩١-١٨٦١) بحثوا هذه الظاهرة في خمسينيات القرن التاسع عشر وقدم آخرون بحثاً على مدى السنين وربما لم يتغير شيء منذ السنوات المبكرة لليّ المعادن سوى أنهم راحوا يعزون الحالات الناجحة في هذه الظاهرة للروح أكثر من عزوها لعقل الشخص المعني بليّ المعادن.

تتضمن الحالات المعروفة لليّ المعادن المزعوم مهارات جو منجيني من كولومبيا، ميسوري، الذي يقال إنه لوى أدوات قاطعة بعد وضعها داخل قارورة مختومة لكي لا يتمكن من لمسها فيزيائياً بصورة مباشرة.

يوري جيلر:

إن المعرفة بظاهرة ليّ المعادن، إضافة إلى الحركة النفسية، تعزى، بالدرجة الأولى، إلى يوري جيلر. فقد بدأ في سبعينيات القرن العشرين يُظهر إلى العلن ما كان يزعم أنه القدرة على ليّ الأشياء المعدنية، كالملاعق، دون ممارسة القوة عليها وعلى إنجاز مهارات أخرى مدهشة تشمل أيضاً أشياء معدنية.

وأول تظاهرة انتشرت على نطاق واسع لقدرته المزعومة حدثت في ٢٣ تشرين الثاني عام ١٩٧٣، عندما استضافه تلفزيون الـ بي بي سي في عرض على شاشته تحت عنوان حديث إلى ديفيد دمبلي.

أبدى جيلر أثناء العرض سلسلة كاملة من المهارات. فقد عالج ساعتين مكسورتين وجعلهما تعملان من جديد. وجعل عقارب إحدى الساعتين تنثني إلى الأعلى داخل زجاجها دون أن يلمسها. ومر بيده على شوكة كان يحملها ديفيد دمبلي فالتوت. يضاف إلى ذلك، التواء شوكة كانت موضوعة على طاولة في الاستوديو بين دمبلي وضيفه.

إن التواء الأشياء المعدنية أو تأثرها بطريقة أخرى بواسطة جيلر اثر على العديد من الناس، حتى على الشكوكيين منهم. وما كان مؤثراً جداً ومدهشاً إلى حد بعيد هو حقيقة أن عدداً كبيراً من الناس اتصلوا هاتفياً بالـ بي بي سي أثناء العرض ليقولوا إن بعض الشوكات والملاعق في بيوتهم التوت تلقائياً. وتحدث آخرون عن ساعات جدارية استأنفت عملها تلقائياً أيضاً بعد أن كانت قد توقفت منذ سنوات، وعن أشياء أخرى انتقلت من امكنتها دون تدخل من احد.

شاعت مآثر جيلر على نطاق واسع وشكلت موضعاً لجدل كبير. فقد زعم بعض السحرة أن مهارات جيلر كلها يمكن أن ينجزها سحرة المسرح ولا علاقة لها بالحركة النفسية-عندما اكتُشف جيلر لأول مرة كان يلعب دور مشعوذ هاو. وقال آخرون إن هذه الحيل لا يمكن أن ينجزها سحرة المسرح، وإنه لا علاقة لها أبداً بخفة اليد.

واستناداً إلى بعض العلماء، فإن إحدى المشكلات التي تحول دون تقرير الحقيقة حول جيلر هي أن هناك نقصاً في الدليل الذي يعتمد على التجارب المقارنة أو نقص في الاختبارات العلمية المرتبطة بقدرته الحركية النفسية المفترضة. ولهذا السبب، غرق بسرعة، منذ ذلك اليوم، في نشاط سيرك وسائل الإعلام.

ولكـن، هنـاك روايتـان حـول مهـارات جيلـر غـير المسرحية تبـدوان غـريبتين. الأولى، ذكرها روبين ستون في أسرار العقل (١٩٩٣)، وتتعلق بحادث وقع عندما كان في أولى رحلاته إلى أمريكا عام ١٩٧٢. وتتعلق الثانية بساعة بيغ بنّ، الساعة الشهيرة في لندن.

عندما كان جيلر في أمريكا، التقى رائد فضاء أمريكي، هـو إدغـار ج. متشل، الـذي كان على متن أبولو ١٤ في رحلتها إلى القمر والـذي حاول إنجاز بعض تجارب الإدراك خارج الحس من الفضاء. تناول جيلر طعام الغذاء مع متشل وسكرتيرته، إضافة إلى باحث نفساني وأحد علماء الفيزياء.

ويقال إن جيلر طلب من سكرتيرة متشل أن تخلع خاتماً ذهبياً كانت تضعه في إصبعها وتضعه في راحـة يـدها المطبقة. وبعدئذٍ، حـرك يـده إلى الـوراء والأمـام فـوق يـد المـرأة دون أن يلمسها. ويقال إن جيرالد فاينرغ، عالم الفيزياء، ذكـر أن المرأة فتحت يدها فظهـر في الخـاتم شرخ وكأنه قُدَّ بأداة حادة جداً. وذكـر عـالم الفيزياء أيضاً أن الخـاتم التوى في غضون بضع ساعات واتخذ تدريجياً شكل الحرف S.

إن ظـاهرة كهذه، في بعض الظـروف، يمكـن أن تنتج عـن خفـة اليـد، كـأن يكـون خاتماً آخر قد وضع بدلاً من الخـاتم الأصلي. أما في ظـرف كهـذا، حيـث كـان هنـاك شهود مـستقلون، أحـدهم عـالم مـن المفـترض أن يكـون شـكوكياً إلى حـد معقـول حـول النـشاط الخارق، فإنه من الصعب تعليل كيف حدثت مثل هذه الظاهرة.

وظهر آخر مثال لقدرة جيلر عندما طلبت منه شركة أمريكية للألعاب أن يوقف ساعة بيغ بنّ عند منتصف ليلة رأس سنة ١٩٨٩/١٩٩٠ كدليل على موهبته المزعومة. وكـان لـدى جيلر دليل مكتوب على أن شركة الألعاب تريد أن تتعامل معه بهذه الطريقة.

كـان جيلـر في هـذا الوقت يعيش في انكلترا وقـرر أن يـذهب إلى ويستمنستر، حيـث توجد ساعة بيغ بنّ، يوم ١٧ كانون الأول، بعد يوم من قبوله لتحدي الشركة، ليقوم بتجربة استباقية قبـل يوم التحدي. ووصل نحو الظهـر، وسُجِّل أن بيـغ بـنّ توقفت عنـد الساعة ١٢,٣٥ ظهراً.

من الصعب تعليل ذلك بعبارات منطقيـة عادية. فالأمن في ويستمنستر، بصورة طبيعـة، مشدد ويقـظ جـداً، ومـن المستحيل عملياً أن يتواطـأ جيلـر لاعـتراض عمل الساعة. والمصادفة دائماً احتمال في مثل هذه الحـالات، ولكـن في هـذه الحالـة، تبـدو احتمـالاً بعيداً. وكـان جيلـر موجوداً عندما توقفت الساعة ولديه دليل مكتوب لتحدي الشركة.

دخل جيلر في عدد من التحديات لتقديم برهان عام جداً على طاقته الحركية النفسية المزعومة. ووقع أحد هذه التحديات عندما كان على متن السفينة رينيسانس التي تبحر بين أسبانيا وإيطاليا. فقد رأى بعض أعضاء الفرقة الموسيقية في السفينة أن يتحدوا جيلر لتوقيفها، وذلك على سبيل التسلية.

قبل جيلر التحدي فوراً وبعد ذلك بقليل أدرك الناس أن السفينة بدأت تفقد القدرة. وعندما توقفت محركات الباخرة، اكتشف المهندسون أن سبب المشكلة هو تغضن أنبوب الوقود، لأن أنابيب الوقود تصنع من المعدن.

ادعى البعض أن هذا كان مجرد مصادفة، والمصادفات التي لا يمكن تصديقها تحدث طبعاً. ولكن، لا بد أن يكون التواء أنبوب الوقود المعدني في السفينة مصادفة مدهشة حقاً في وقت تركز فيه الاهتمام على شخص ما بسبب قدرته على لي المعادن وقبول التحدي لتوقيف السفينة.

من الواضح أن الفترة بين طرح التحدي ومباشرة جيلر بالتركيز عليه كانت قصيرة جداً بحيث لا تتيح له أن يتواطأ لإعطاب أنبوب الوقود، حتى في حالة وجود شريك له يتمتع بمعرفة كافية حول السفينة. ويبدو هذا بعيد الاحتمال.

كان لجيلر الكثير من المنتقدين كما كان له الكثير من المعجبين. ربما أن الحقيقة حول موهبته المفترضة لم تكن معروفة أبداً. وإذا وضعنا في اعتبارنا أن بعض مهاراته تبدو استثنائية جداً بالنسبة لإيجاد تعليل معقول بسيط لها، عندئذ، يبدو من المحتمل أنه كان يتمتع بنوع من قدرة غريبة. فعلى سبيل المثال، أشارت دراسة مجهر الكتروني لمفتاح التوى بتأثير جيلر إلى أن تركيب المعدن قد أعيد ترتيبه وأن الكسر أظهر صفات أخرى تختلف عن تلك التي وجدت في مفتاح كُسِر بطريقة عادية.

ولكن هانس ج. آيسنك وكارل سرجانت في كتابهما شرح غير المشروح (١٩٩٣) يكتبان، «يبدو واضحاً الآن أن جيلر لاحظ وسجل تحسين أي قدرة حركية نفسية يمكن أن يتمتع بها عن طريق خفة اليد.» يمكن أنه كان يتمتع بشيء من القدرات الحقيقية ولكن هذه القدرات، في بعض الحالات، سببت تأثيرات مدهشة أكثر منها في ظروف أخرى.

هاستد:

جون هاستد، اسم آخر مشهور في الحركة النفسية، ولكن شهرته لم تأت من ليّ المعادن أو من أي طاقة حركية نفسية أخرى مفترضة، بل من كونه عالماً، قام بقدر كبير من

البحث حول الطاقة الحركية النفسية المفترضة، عندما كان أستاذاً لعلم النفس في كلية بيربك في لندن.

وقد توصل في بحثه إلى بعض الموجودات المدهشة إلى حد بعيد. فمن بين الأشخاص الذين كان يدرس حالتهم، وجد من يستطيع جعل دبابيس الورق تعلق مع بعضها بعضاً لتشكل عنقوداً متشابكاً دون أن يمسها أحد، علماً أنها كان توضع داخل كرة بلورية مغلقة.

وفي ثمانينيات القرن المضي، عندما كان يعمل مع أطفال المدارس، حقق هاستد نتائج مقنعة. ففي عام ١٩٨٢، نجح واحد من الصبية الذين شاركوا في هذه التجارب، اسمه كارل بريسكوي، في تشويه قطعة من سلك مصنوع من النتريول بصورة مستديمة بمجرد لمسه.

كان هذا مدهشاً جداً، لأن النتريول يتمتع بخاصية مميزة هي قدرته على الاحتفاظ بشكله بصورة مستديمة. والطريقة الوحيدة التي يمكن بها أن يستعيد شكله تكون بإخضاعه للشد إلى درجة حرارة عالية جداً. وفي ذلك الوقت، كان الظن السائد هو أن هذه الطريقة هي الوحيدة، على الأقل، حتى ظهر مارك بريسكوي.

أنجز هاستد أيضاً اختبارات حركية نفسية باستخدام قضيب مصنوع من سبيكة هشة لا يمكن ليُّها إلى زاوية معينة من التشويه في أقل من زمن محدد. فإذا طبقنا قوة غير مناسبة في محاولة لتسريع هذه العملية، فإن القضيب سينكسر. وأعلن هاستد أن واحداً من أشخاص تجاربه لوى قضيباً كهذا في زمن أقل بكثير من الزمن الأدنى المحدد.

استخدم هاستد أيضاً المقاييس في بحثه. فعلى سبيل المثال، كان يربط أشياء معدنية بتلك المقاييس التي تختبر الانفعال وبأجهزة التسجيل. وعلى الرغم من أن أحداً لم يكن يلمس تلك الأشياء، فإن أجهزة اختبار هاستد كانت تسجل قراءات الإجهاد.

من الواضح أن هاستد أجرى تجاربه بعقل مفتوح جداً، دون تحيز كالذي يبديه الكثير من العلماء حيال أي شيء تُشتَمُّ منه رائحة الخارق. وفي الواقع، يُسجَّل له القول إن الحركة النفسانية تنجح أكثر إذا كان الوضع النفسي للمعنين بالاختبار إيجابياً أكثر منه سلبياً وإذا كان الجميع في حالة استرخاء.

من المحتمل ان يكون معظمنا أكثر ميلاً إلى أن يصدق عالماً أكثر مما يصدق شخصاً بدا كمشعوذ هاو. ولهذا السبب، يحتمل أن ننظر إلى عمل هاستد بريبة أقل منها إلى عمل جيلر. وحتى إذا وضعنا في اعتبارنا هذا التحيز، فإن التجارب التي أجراها هاستد مؤثرة كما يبدو وتوحي بأن بعض العقول تتمتع بنوع من القدرة للتأثير على الأشياء المعدنية.

كروسار وبوفيه:

باحثان فرنسيان عملا في حقل الحركة النفسية. وتوصلا أيضاً إلى بعض النتائج المدهشة.

لقد سجلا وقائع نجح فيها الفرنسي جان بول جيرار الذي كان يلوي المعادن في ليّ شرائح معدنية كانت مغلفة بأنابيب زجاجية مختومة. وقد قام هاستد وباحثون آخرون بفحص النتائج والطرق المستخدمة للحصول عليها وتوصلوا إلى استنتاج استبعدوا فيه إمكان الغش.

وأجرى الباحثان الفرنسيان أيضاً اختبارات مسجلة مع جيرار استخدما فيها شرائح الألومنيوم، أدت إلى تبدلات في تلك الشرائح ما كان لها أن تظهر إلا في درجات الحرارة العالية جداً. لم تكن هذه التبدلات مرئية بالعين المجردة ولكن أمكن اكتشافها فقط بواسطة تحليل المعدن.

وكما هي الحال مع هاستد، فإن إطاراً من الحقيقة كان، كما يبدو، يحيط بعمل هذين الباحثين، ومن الصعب جداً تجاهل تلك الاختبارات أو التشكيك فيها، لأنها كانت تشير إلى تبدلات حقيقية في المعدن.

تحريك الأشياء

ليُّ المعادن ليس الشاهد الوحيد على القدرة الحركية النفسية المفترضة التي حظيت بالاهتمام في العصور الحديثة نسبياً. فالبعض لا يدَّعي القدرة على ليّ الأشياء، ولكن على تحريكها بقوة عقله دون لمسها.

فعلى سبيل المثال، يقال إن آلا فينوغرافادا من موسكو في سبعينيات القرن العشرين جعلت الأشياء التي تزن حتى ثلاث آونسات[1] تتدحرج على سطح الطاولة دون أن تلمسها أو يلمسها أي شخص آخر. وقيل أيضاً إنها كانت تستطيع جعل أشياء أخف وزناً بنحو الثلث من تلك التي تنزلق عبر احد السطوح.

كولاجينا:

يذكّرنا روبين ستون في أسرار العقل (١٩٩٣) بشخص أظهر، كما يبدو، قدرة حركية نفسية قبل بضع سنوات من بروز جيلر. والشخص المعني هي نيليا، أو نينا كولاجينا، وهي رقيب سابق في الجيش الأحمر.

١- الأونسة وزن يساوي ٢٨.٣٥ غ -المترجم.

لم تحظ كولاجينا في وسائل الإعلام بنجاح كالنجاح الذي حققه جيلر، ولا سيما لأن العلاقات بين الغرب وما كان آنئذٍ يسمى بالاتحاد السوفييتي لم تكن متاحة كثيراً كما هي اليوم. وعلى خلاف جيلر، فإنها لم تحظ بالاهتمام بسبب بسالتها في ليّ المعادن بل من أجل قدرتها الظاهرية على جعل الأشياء تتحرك.

في البداية، جذبت كولاجينا اهتمام الباحثين بسبب قدرتها على اكتشاف ألوان خيوط الخياطة بمجرد لمسها ولأنها أظهرت قدرة على «قراءة» صحيفة بإمرار رؤوس أصابعها عليها. وأثناء بحثهم حول هذه الطاقات الغريبة، لاحظ بعض الباحثين أن أي شيء صغير يكون قرب رؤوس أصابعها، عند ممارستها لطاقاتها، كان يتحرك دون أن يلمسه شخص أو شيء.

لم تكن الأشياء المعدنية وحدها التي تتبع ذلك السلوك بوجود كولاجينا. فقد لاحظ بعض الباحثين الأمريكيين الذين ذهبوا إلى روسيا لدراسة طاقاتها أنها تؤثر في الأشياء المصنوعة من مجموعة كاملة من المواد بما فيها البلاستيك، والورق والقماش إضافة إلى المعدن.

كانت الأشياء، كما يبدو، لا تتحرك بعيداً جداً-علبة ثقاب، مثلاً، تتحرك ثلاثة إنشات[1]-ويُزعَم أنها كانت تختلف في سرعة تقدمها. فبعضها يتحرك بسلاسة وبطء في حين كانت أشياء أخرى تتحرك مرتجّة بشكل متقطع.

لقد تم إخضاع كولاجينا لمناظرة صارمة جداً من قبل الباحثين، ولا سيما الأمريكيين منهم، ولهذا من الصعب القول إنها كانت تمارس نوعاً من الخداع. يضاف إلى ذلك، يبدو أن طاقاتها المفترضة لتحريك الأشياء ظهرت بصورة عرضية عندما اكتُشف أن أشياء صغيرة ابتعدت عنها بصورة آلية عندما كانت تستخدم رؤوس أصابعها بدلاً من عينيها في «رؤية» الأشياء.

وكانت واحدة من المهارات الكبيرة لكولاجينا هي قدرتها على حرف إبرة البوصلة. وكان يمكنها القيام بذلك أمام آلة التصوير.

وتأسيساً على ما سبق، ربما يُمحّص العقل شيئاً من الثقة بسبب قدرته في التأثير على الأشياء غير الحية، وذلك بانتظار أن نكتشف خلاف ذلك. ومن الممتع أن نرى ما يتوصل إليه العلم بطريقة التعليل المنطقي غير الخارق.

١- الإنش يساوي ٢.٥٤ سم -المترجم.

الارتفاع في الهواء

هناك نوعان من الارتفاع في الهواء. الأول، يرتبط بارتفاع جسم المرء. ولكن المعنى الآخر هو الذي يهمنا هنا. فالارتفاع في الهواء يمكن أيضاً أن ينطبق على ارتفاع الأشياء إلى الجو بما يفترض نتيجة للطاقات الحركية النفسية عند أحدهم.

فقد قال العلماء الروس إن كولاجينا، التي وصفنا طاقاتها المفترضة آنفاً، كانت قادرة على جعل كرة البنغبونغ تسبح في الهواء، وقد شوهدت في فيلم يفترض أنهم أعدوه بأنفسهم.

وفي عام ١٩٨٤، نجحت مراهقة بولندية، هي جوسيا غيجويسكي، في جعل شوكة ترتفع وتسبح عبر الغرفة على مرأى من مصورين تلفزيونيين من اليابان. ومن مهاراتها الأخرى الخارقة المفترضة هي أنها كانت قادرة على جعل بصيلات مصابيح الإضاءة تنفجر عندما تريد.

ويقال إن ستانسلافا تومكزيك، وهي إحدى مواطنات غيجويسكي، كانت تتمتع بطاقات مفترضة للتعلق في الهواء في عشرينيات القرن الماضي. وكانت مختصة برفع المقصات.

د. د. هوم:

ولد دانييل دَنغلاس هوم في أدنبرة عام ١٨٣٣ وحُمِل إلى أمريكا في أربعينيات القرن التاسع عشر. وأصبح هناك واحداً من أكثر الوسطاء شهرة حيث كانت أمريكا في ذلك الوقت تخضع لسيطرة الروحانية ويتمنى عدد من الناس حضور جلسات استحضار الأرواح.

ويقال إن هوم كان روحانياً منذ صغره وزُعِم أنه كان على اتصال منتظم مع أرواح الموتى. وفي ذلك الوقت، كان في أمريكا الكثير من الوسطاء، الذين كان بعضهم ينحاز دون شك إلى الحركة الروحانية. وكانت جلسات استحضار الأرواح التي يعقدها هوم شائعة بشكل خاص، جزئياً بسبب تعدد التأثيرات النفسية التي تظهر فيها. فكان الناس يتحدثون عن طَرْق وعن أيدي غير مرئية تمسك بهم. وكان هناك أيضاً حديث عن طيران في الهواء من قبل هوم نفسه، وأشخاص آخرين وأشياء موجودة في الغرفة.

إدري:

وهناك روايات حول ملابس ترتفع عن طاولة وطاولات ترتفع. ويقال إن كؤوساً كانت ترتفع وتسبح حول الغرفة. وقد قام اللورد إدري بتوثيق ارتفاع الطاولات في جلسات هوم، وكان إدري مراسلاً أجنبياً سابقاً لجريدة الديلي تلغراف. وقد اعتاد بوصفه صحفياً تسجيل

التفاصيل، فسجل تفاصيل الكثير من جلسات هوم مباشرة بعد انتهائها. وتشير سجلاته إلى أنه شهد ستة عشر ارتفاعاً للطاولات، وكان عدد منها ثقيلاً جداً.

كروكس:

وهناك شاهد آخر على ارتفاع الأشياء إلى الهواء في جلسات هوم هو السير وليم كروكس، وهو عالم فيزيائي بارز. قرر أن يحاول فهم التجارب المقارنة حول تأثيرات الارتفاع في الهواء عند هوم. فذكر أنه رأى هوم يرفع إلى الهواء كرسياً تجلس عليه امرأة.

كان هوم شغوفاً بالموسيقا، وكان لديه أكورديون يقال إنه كان يرتفع ويسبح في جو الغرفة وهو يعزف «هوم اللطيف هوم». ولكي يكتشف الطريقة التي يستخدمها هوم، ابتاع كروكس أكورديوناً ووضعه في قفص مقفل. ولكن ذلك الأكورديون ارتفع أيضاً، ومع أنه لم يستطع السباحة في جو الغرفة، فإنه تحرك حول القفص، وهو يعزف ألحاناً طوال الوقت.

وكما أشرنا سابقاً، قيل إن هوم يتمتع بالقدرة على الارتفاع بنفسه ورفع أشخاص آخرين. والأغرب من كل هذا هي حقيقة ما قيل حول إنه كان قادراً على إطالة جسمه. وكان هناك، كما يبدو، الكثير من الشهود على هذه الوقائع. ويفترض أنه أضاف في إحدى المناسبات نحو ستة إنشات إلى طول قامته.

إن بعض الرويات حول الرفع في الهواء فيما يتعلق بهوم تبدو خارقة ومذهلة أيضاً. وقد أكد صحتها شهود عيان، وشهود كانوا موثوقين جداً وكتبوا روايات متزامنه في ذلك الوقت أو مباشرة بعد الجلسات ذات الصلة.

كان هناك الكثير من الأشخاص الذين كانوا يشككون بهوم، كما خلق لنفسه الكثير من الأعداء، مثل روبرت براوننغ، الذي وصفه بالمحتال، ولكن هذا لم يثبت، مع أن عدداً من الناس كانوا تواقين إلى إثبات ذلك. ومع أن كروكس حاول إقناع العلماء باختبار هوم والبحث حول جلساته وحوادثه، فإن أحداً منهم لم يوافق على القيام بذلك، ربما لأنهم كانوا متهيجين جداً.

إن التجارب الغريبة المسجلة في جلسات استحضار الأرواح والتي وصفها البعض بأنها هلوسة، ربما تعزى إلى التنويم المغناطيسي. ولكن، ليس هناك الكثير ممن يستجيبون للتنويم المغطيسي إلى الحد الذي يهلوسون معه لمجرد الإيحاء. إضافة إلى ذلك، كانت جلسات هوم تدار عادة تحت نور ساطع، الأمر الذي لا يؤدي إلى الهلوسة.

وبسبب المصداقية الظاهرة للشهود الذين تركوا روايات حول نشاط هوم، فإنه من الصعب انتحال الأعذار. وإذا لم يكن محتالاً كاملاً، وهذا لم يثبت، وإذا كانت الهلوسة العامة بعيدة الاحتمال، على الأقل، في كل الحالات، إذاً، ما الذي يكمن خلف الارتفاع في الهواء؟

ما من شخص آخر يستطيع، كما يبدو، أن يُحدث هذه التأثيرات بالمستوى الذي أحدثها هوم، ولهذا ربما كان طاقة غريبة لعقله هي سبب الارتفاع في الهواء والظواهر الأخرى. وما لم يأت شخص آخر تحف به التأثيرات نفسها، فإنه لا يحتمل أبداً أن نعرف، وحتى في حال وجود هذا الشخص، فإنه يمكن أن نبقى في الظلمة.

خلاصة:

إن رفض الحركة النفسية المزعومة بالكامل على اعتبارها خداعاً، أو خفة يد أو هلوسة مغر للمشككين، ولكن، يبدو في بعض الحالات أن هناك دليلاً حقيقياً، كما في حالة الأمثلة المزعومة للّيّ المعادن، التي تشير إلى أن شيئاً ما غريباً يحدث ولا يمكن تعليله بأي من الوسائل العادية. ومع ذلك، يبدو ممكناً، وإن يكن هذا الاحتمال بعيداً، أن العقل البشري يمكن أن يؤثر في الجمادات بطريقة ما.

الفصل السابع

دور العقل في المرض

على الرغم من التقدم الخارق الذي تحقق في علم الطب، فإنهم ما زالوا يعترفون، على نطاق واسع، بأن العقل يمكن أن يلعب دوراً مهماً في الحالة الصحية. ويمكن أن يكون له دور في المرض أو الشفاء.

مقاومة المرض

يفترض الطب الشعبي والأدب الرائج دائماً أن الناس يكونون أكثر ميلاً إلى المرض إذا كانوا دون المستوى المعتاد من الناحيتين العاطفية والعقلية. وكلنا سمع قصصاً حول شابّات دخلن فيما يُعرّف بحالة «انهيار» بعد مفارقتهن لأحبابهن، سواء بسبب موت، أو هجر أو تدخل والديّ. والانهيار ليس فقط حالة اكتئاب أو انحطاط في المعنويات، بل هو تدهور فيزيائي حقيقي في الطاقة، والصحة والسعادة، وينتهي أحياناً بالموت.

ويخبُر الكثير من بيننا في نفسه شكلاً لهذه الحالة أقل إثارة. فإذا شعر أحدنا بالغم، فإنه سيصاب بكامل سلسلة الزكامات والعلل الثانوية، ولكن إذا كان في حالة نفسية طيبة، فإنه يجد في نفسه القدرة على تفاديها كلها، مع أنه يمكن أن يكون على تماس مع أشخاص مصابين بها. وكأن الحالة العقلية، كما يبدو، تؤثر في الجهاز المنيع.

الاضطراب العاطفي الفصلي

نحن في فصل الشتاء، وكمية النور المنتشرة أقل من المألوف. هذه الحقيقة يمكن أن تجعل المرء في حالة مكتئبة، تُعرَف بالاضطراب العاطفي الفصلي، وهي حالة يصاب فيها بالعلل الشتوية من كل الأنواع. وهذا النوع من الاضطراب يحمل المصابين على النوم أكثر من المألوف والتحدث عن ضعف طاقتهم أو قلة حماسهم للحياة.

وفي فصل الشتاء، يصاب أكثر الحيوانات بالخمول ويسبت بعضها حتى قدوم فصل الربيع. ويعتقد بعض العلماء أنه ربما يكون لدى من يعانون من الاضطراب العاطفي الفصلي قادح في الدماغ شبيه بمثيله عند الحيوانات، وهو الذي يجعلهم يكتئبون.

ويبدو أن النور يمارس تأثيراً علاجياً على الاضطراب العاطفي الفصلي. فقد تحدث المصابون عن تحسن هائل في حالتهم إذا جلسوا يومياً بعض الوقت مقابل مجموعة من المصابيح الفلورية الكاملة الطيف.

الحوادث الحياتية

وهناك، كما يبدو، ظروف أخرى يمكن أن تُضعف مقاومتنا للعدوى والمرض، وتشمل الحوادث المشؤومة في الحياة، كالموت والطلاق، إضافة إلى الحوادث الحياتية، سواء كانت حوادث محايدة، كنقل المسكن، أو حوادث سعيدة، كالزواج أو ولادة طفل. ويبدو أنه إذا تسبب الحادث بتبدل رئيس في الحياة، فإن مقاومة المرض والعدوى يمكن أن تتأثر إلى الأسوأ.

ولهذا السبب، نسمع عادة روايات حول أشخاص أصيبوا بالمرض بعد موت قريب لهم. وكثيراً ما تحدث هذه الحالة عندما يموت زوج بعد زواج طويل، حتى في الحالات التي لا يكون فيها الزوج سعيداً. فالزوج الباقي لا يمكنه، كما يبدو، التغلب على حادث الموت ومواجهته وحيداً، مع أن الباقي والمتوفى ربما لم يكونا متلازمين أو معتمداً كل منهما على الآخر أثناء حياة المتوفى. ويمكن لرد فعل كهذا أن يتظاهر إما بهجوم مرض جديد أو تفاقم مرض موجود من قبل.

ينجح الشخص أحياناً في التخلص من المرض بعد فترة ليست بالقصيرة، بالطريقة التي يمكن أن يخرج فيها الناس من فترة اكتئاب دون تناول أي شكل من المعالجة. ولكن هذا لا يصح في بعض الحالات، ومع ذلك، فإنه ليس من النادر إطلاقاً أن يموت الزوج الباقي خلال فترة ليست طويلة، إذا أصيب بمرض بعد وفاة زوجه، حتى لو كان المرض غير انتهائي. وكما لو أن الزوج الباقي قد تخلى عن رغبته في الحياة.

وفقدان الإرادة هذا يلاحظه أحياناً الأطباء عند المرضى الذين يقال لهم إن شيئاً ما عندهم يسير، إلى حد خطير، على غير ما يرام. ونجد بين هؤلاء الكثير ممن يجارون الحياة لأطول فترة ممكنة. ولكن هناك آخرون ممن تتفاقم حالتهم فجأة بعد أن يتلقوا أخباراً عن حالتهم وربما يموتون قبل الوقت المتوقع بفترة طويلة، إذا وضعنا في اعتبارنا طبيعة الإنذار في

حالتهم. ويبدو أن هؤلاء يفقدون الرغبة في الحياة عند تزويدهم بالمعلومات حول مرضهم، ولا سيما في حالة الأمراض السرطانية، فيديرون رؤوسهم إلى الحائط ويقررون، بكل بساطة، أن يموتوا.

يبدو أن اتجاه العقل عند هؤلاء الأشخاص يمارس تأثيراً مهماً في حالتهم الفيزيائية. وكأن حالتهم العقلية اتصلت بأجسامهم وأثرت في حالتهم الصحية.

الجهاز المنيع:

إن الكثير من الروايات التي نسمعها حول أشخاص يديرون رؤووسهم ببساطة إلى الجدار ويحتضرون هي من قبيل التندر-قصص تنقل من صديق لصديق، أكثر منها قصصاً يعززها برهان قاطع. ومع ذلك، نجد اليوم الكثير من الأطباء والعلماء يؤمنون باحتمال وجود علاقة بين الحالة العقلية أو العاطفية للشخص وحالته الجسمية، أي ربما بين حالة العقل والجهاز المنيع.

لقد بدأ العلماء مؤخراً يعولون أكثر على الاحتمال الأخير، وهناك اليوم فرع للبحث الدماغي، يسمى مبحث المناعة النفسية العصبية Psychoneuroimmunology، الذي يتناول مسألة وجود علاقة بين حالة العقل والجهاز المنيع. كان الجهاز المنيع حتى وقت قريب جداً يُعد جهازاً للدفاع يعمل مستقلاً عن الدماغ والجُمَل الهرمونية، ولكن العلماء كشفوا نوعاً من دليل يشير إلى أن الدماغ يمارس بعض التأثير على الجهاز المنيع، وبالتالي، يعطي بعض المصداقية لحقيقة أن حالة الشخص العليَّة يمكن أن تضعف مناعته للمرض. وهكذا، يمكن أن نقول لشخصين في الوقت نفسه إنهما مصابان بداء عضال، فيموت أحدهما خلال فترة قصيرة في حين يمكن أن يعيش الآخر الفترة المتوقعة أو حتى أطول منها.

والأكثر إثارة ما يشير إليه البحث الحديث من أن الحيوانات، وربما البشر، يمكن أن يتعلموا كبت أجهزتهم المنيعة. فإذا صح هذا، فإنها تُعد أخباراً طيبة بالنسبة لكل من يعاني من مرض ذاتي المناعة، الذي يصبح فيه فهم الجهاز المنيع خاطئاً، فيبدأ بمهاجمة أنسجة الجسم التي يفترض فيه أن يدافع عنها ويحميها. ولسوء الحظ، يشير البحث المبكر إلى أن التأثيرات الرئيسة على الجهاز المنيع تميل إلى أن تكون كابتة وسلبية. ولكن هذا النوع من البحث ما يزال في بداياته.

إن هذا البحث كله، مع أنه جرى في مرحلة مبكرة، يشير إلى نوع من الدليل العلمي على حقيقة أن الناس الذين يكونون عادة في حالة تدهور صحي أو عقلي، يميلون إلى أن يصابوا بعلل أو أمراض أكثر مما لو كانوا في إطار عقلي أكثر بهجة ونشاطاً. وهذه الحقيقة شكلت، على مدى مئات السنين، موضوعاً لدليل تدري، ولكن هناك بعض المشككين الذين يريدون دائماً تقديم إثباتات علمية.

القَهَم[1] Anorexia

هناك حالة شائعة إلى درجة مزعجة في العصر الحديث، ولا سيما بين البنات والشابات، تربط، بشكل واضح جداً، بين العقل والحالة الفيزيائية. وهذه الحالة هي القهم العصابي، ويعرف ببساطة بالقهم.

في هذه الحالة، ليس اتجاه العقل هو الذي يقود الشخص إلى أن يعتلّ أكثر مما يجب، وإلى الموت أيضاً، بل إن إدراك الناس لأنفسهم هو الذي يقودهم، خطأ، إلى الظن بأنهم بدينون، وبشعون ومقرفون، وبالتالي، يدفعهم إلى حرمان أجسامهم من الغذاء والغذيات الحياتية، إلى درجة يعتلّون معها ويموتون أيضاً.

ينظرون في المرآة، ويرون بعين خيالهم أنها تعكس صوبهم اناساً جساماً، مع أن الآخرين ينظرون إليهم فيجدونهم نحفاء وحتى هزيلين. تدفعهم عقولهم إلى النظر إلى أنفسهم بطريقة خاطئة تماماً، مما يؤدي إلى اضمحلال احترامهم لذواتهم.

أصبحت حالة القهم هذه أكثر شيوعاً في العقود الأخيرة، وتعزى إلى صورة المرأة المثالية، وهي صورة نحيفة إلى حد لا يُصدَّق، تلك التي يعرضها مصمموا الأزياء ووسائل الإعلام. وهناك أيضاً النساء الشابات، النحيفات غالباً إلى درجة الهزال، اللائي يتبخترن على امتداد الممرات الضيقة في صالات عرض الأزياء.

هذه عوامل مساعدة بوضوح، ولكن المشكلة تكمن في عقل المكابدين، وهو عقل احترام الذات فيه ضعيف جداً. ولكن ما يمكن أن يمارس تأثيراً عرضياً على الجسم ليس الشكل المألوف من الاضطراب العقلي، بل الشكل الذي يمارس تأثيراً مباشراً على الحالة الفيزيائية للجسم، لأن العقل يشير إلى أنه يجب حرمان الجسم من التغذية لكي يمكن التمتع بجسم رشيق بما يكفي.

١- قلة الشهية إلى الطعام -المترجم.

عدم انتظام العادة الشهرية

إن ما يبعث على الدهشة، بعدد من الطرق، هو أن متوسط الدورة الطمثية الشهرية منتظمة جداً. ويعمل مزيج من الهرمونات على تنظيم النموذج الشهري، مع أن الطبيعة الصحيحة لذلك التنظيم غير معروفة تماماً حتى الآن.

أما بعض الانحراف عما يُعد دورة طبيعية، أي ٢٨ يوماً، على الرغم من إمكان حدوث بعض التبدل الطفيف، فربما يمكن عزوه إلى اختلال التوازن الهرموني. ولكن هناك حالات فيما يخص الدورة الشهرية، يبدو أن العقل يلعب دوراً فيها.

فعلى سبيل المثال، إذا اعترى القلق امرأة أو بنتاً حول كونها حاملاً، فإنه من الشائع جداً أن تتأخر دورتها الشهرية التالية، ليس لأنها حامل فعلاً، ولكن بسبب قلقها، على ما يظهر. ويبدو أن العقل يتدخل ويسبب هذا التشوش.

وعلى العكس، تخبُر النساء أحياناً تأخيراً في الدورات الشهرية في حالات التوق الشديد إلى الحمل ثم يتبين فيما بعد أن الواقع غير ذلك. وكثيراً ما يصبن بالانهيار عندما تظهر دورتهن، لأن القناعة بأنهن حوامل كانت قد بدأت تتكون عندهن. هنا أيضاً يبدو أن العقل يمارس بعض التأثير في الدورة الشهرية.

يبدو أن ما يورط العقل في الدورة الشهرية ليس فقط الخوف من الحمل أو الرغبة فيه. ولكن المصدر الرئيس للخوف أو القلق، كالفحوص المهمة أو أي تبدل رئيس، كتغيير المسكن، يمكن أن يمارس التأثير نفسه.

التوتر:

أدى الأسلوب الحديث للحياة إلى حالة أخرى يمكن أن تقود العقل إلى التأثير على حالة الجسم. وهذه الحالة هي التوتر، وقد تبين أنها واحدة من الكلمات المفتاح للعقود الأخيرة من القرن العشرين. فسرعة الحياة الحديثة، والثقافة التنافسية البعيدة عن القيم، والأعباء المرهقة للعمل، وطول ساعات الاستخدام وعدم الشعور بالأمان فيه، كلها عوامل تقع مسؤوليتها على الحياة التي اصبحت أثقل وطأة وجعلت الناس أكثر توتراً.

والتوتر يمكن أن يؤثر في العقل. فيجعلنا نواجه صعوبة في التركيز، كأن يقتضينا إنجاز جزء من عمل عدة ساعات، في حين لا يحتاج إنجازه، في الحالة الطبيعية، أكثر من عشر دقائق. والذاكرة، كما يبدو، تتدهور أيضاً، فنجد أنفسنا، مثلاً، ننسى أن نقوم بأعمال كنا نقوم بها بحكم العادة، أو ننسى أرقام الهواتف التي كنا نستظهرها دون تفكير.

والحالة النفسية أيضاً يمكن أن تتأثر. فبدلاً من أن نكون مبتهجين وهادئين نسبياً، فإن التوتر يدفعنا إلى التهيج والعدوانية، وهو تبدل يمكن أن تكون له تأثيرات غير مرغوبة على علاقاتنا مع الآخرين. والتوتر أيضاً يمكن أن يضعف، إلى حد كبير، مستويات الطاقة لدينا، فنشعر بالتعب والإرهاق طوال الوقت.

والحقيقة الأكثر مدعاة للدهشة هي أن التوتر قادر، كما يبدو، على إنتاج الاضطرابات الفيزيائية والأمراض أو مفاقمتها، وكأن عقولنا تحاول أن تقول لنا إنه إذا كنا نريد أن نحتفظ بسعادتنا، فما علينا إلا أن نبدل أساليب حياتنا. ويعزى اليوم عدد كبير من الاضطرابات إلى التوتر.

المواجهة أو الهرب:

يمكن القول أيضاً إن أسلافنا القدامى كانوا يعانون من التوتر، ولكنه توتر من نوع آخر. فكانوا يخافون من هجوم الحيوانات المفترسة عليهم، ويعتريهم القلق حول إيجاد الغذاء الكافي، والدفء وكل أساسيات الحياة.

في هذه الحالة، يقوم الدماغ بمساعدة الجسم على المواجهة. فالدماغ يقيِّم الوضع وما إذا كان ينطوي على إشكال أو خطر ويبعث رسالة إلى الجملة العصبية لكي تكيف الوظائف الفيزيائية بحيث تساعد على التعامل مع ذلك الوضع. ومن أجل زيادة مستويات الطاقة، فإن أجسامنا تنتج المزيد من الأدرينالين[1] في الجريان الدموي. فتزداد سرعة قلوبنا بدرجة مهمة، ويرتفع ضغطنا الدموي، وتتشدُّ عضلاتنا ويصبح تنفسنا أكثر ضحالة. وهكذا، تتولى أدمغتنا أمر استعدادنا لمواجهة إشكال الوضع أو خطورته.

هذا هو نوع الآلية التي ساعدت أسلافنا على البقاء، وهي آلية هيأتهم تلقائياً لـ «المواجهة أو الهرب» عند التعرض للخطر. ومازالت هذه الآلية نفسها تهب لمساعدتنا عند مواجهة خطر فيزيائي مفاجيء. فإذا صدف وكان أحدنا في مبنى يحترق، فإنه سوف يسرع إلى أقرب مخرج، وإذا داهمته سيارة جامحة، فإنه سيلقي بنفسه بعيداً عن مسارها، وإذا هاجمه أحدهم، فإنه إما أن يهرب أو يصمد للمواجهة، وذلك وفقاً لظروفه ونمط شخصيته.

وعلى الرغم من أننا قلما نواجه خطراً فيزيائياً كبيراً، فإن مشكلتنا تكمن في أنه كثيراً ما نواجه أوضاعاً ضاغطة. والواقع، بالنسبة للبعض، هو أن الحياة فترة متواصلة من التوتر الذي لا فكاك منه. وبدلاً من أن نلجأ أحياناً إلى طلب المساعدة من آلية«القتال أو الهرب»

١- هرمون تفرزه الغدة الكظرية -المترجم.

لدينا، فإننا نطالبها دائماً بالمزيد. وهكذا، يكون لدينا دائماً، من الناحية العملية، المزيد من الأدرينالين، وبالتالي، المزيد من سرعة القلب، وارتفاع الضغط، وانشداد العضلات وضحالة التنفس. وتعمل أدمغتنا باستمرار على تسريع وظائفنا الجسدية وإعدادنا لاستجابة «القتال أو الهرب»، على الرغم من أن مشكلاتنا لا تتضمن عنصراً للنشاط الفيزيائي الحقيقي.

ومن المؤكد أن الآلة الجسدية المصممة لأزمة عرضية سوف تتشوش وتبدأ بالتفكك عند مواجهتها بهذه المطالب المستمرة. وفي هذا المرحلة بالذات تظهر الاضطرابات المحرضة بالتوتر.

ويجب أن نبيِّن هنا أن ما يؤدي إلى التوتر ليس سرعة الحياة الحديثة، أو أعباء العمل المرهقة أو ارتفاع درجة المنافسة، بل هي المواقف الفردية من هذه العوامل. فبعض الناس ببساطة لا يبالون بها ولا يُعدونها جزءاً من الحياة، وبعضهم يتمتع حتماً بما يُعده تحدياً في حين يشعر البعض الآخر بالضيق.

علاوة على ذلك، ليس غريباً أن تتبدل مواقف الناس تجاه أوضاع الحياة الحديثة وفقاً لظروفهم. فالعازب السعيد، المتحرر من الهموم الذي يجد متعة كبيرة في مواجهة التحديات التي تعترض سبيله في عالم الأعمال المهلكة، يمكن بسهولة أن يصاب بالتوتر بعد بضع سنوات إذا حصل على عدد كبير من الالتزامات المالية ورزق ببعض الأطفال وراح يخاف على سلامته في العمل.

والحقيقة هي أن الكثير من الناس يقدمون أنفسهم إلى حجرة العمليات الجراحية لدى الأطباء وهم يتظاهرون بأعراض سببها التوتر، كما يبدو. وفي الواقع، أصبح الأطباء والعلماء يدركون منذ بداية خمسينيات القرن الماضي أن التوتر يحتمل أن يكون عاملاً سببياً في عدد من الأمراض.

وأحد هذه الاضطرابات الأكثر احتمالاً هو المتاعب القلبية. واضطراب آخر، يمكن أن يؤدي إلى المتاعب القلبية، هو فرط التوتر الشرياني أو ارتفاع ضغط الدم. والصداعات أيضاً، كثيراً ما تكون على صلة بالتوتر، مع أنها يمكن أن تكون على صلة مباشرة بالتوتر أو نتيجة لارتفاع ضغط الدم. وكثيراً ما يتشكى الشخص المجهد من انقطاع النفس، الذي يمكن أن يكون على علاقة مباشرة بالتوتر أو نتيجة لاضطراب قلبي. ويتشكى آخرون من زيادة في سرعة القلب، أو فرط التعرق، أو فرط التورد أو من هجمات هلع.

إن معظم هذه الاضطرابات يشكل أدلة على أن آلية «المواجهة أو الهرب» قد شاركت في زياة السرعة ولكنها أساءت الإرشاد وأدت إلى المشكلات. ويعتقد معظم الخبراء أن نماذج معينة للشخصية، لا سيما النماذج عالية الإنجاز، أي الأشخاص الطموحون الذين يصنفون في

خانة الشخصيات من الدرجة الأولى، هم أكثر ميلاً إلى المعاناة من بعض النتائج المحتملة لفرط التوتر، كالهجمات القلبية.

يبدو واضحاً أن بعض الاضطرابات المرتبطة بالكرب أقل ارتباطاً بالتشويش في آلية «المواجهة أو الهرب». وهذه الاضطرابات تتضمن سقوط الشعر، الذي يمكن أن يكون مصدراً للإرباك إضافة إلى القلق، ولا سيما عند النساء. ويمكن أيضاً أن يصاب الجلد. وفي بعض الحالات، يبدو أيضاً أن الطفح الجلدي وهجمات الأكزيما يرتبطان بالتوتر.

وهكذا، فالتوتر ليس مجرد مسألة شعور بالعجز عن المواجهة، أو العجز عن الاسترخاء، أو التحول، أو شعور بالقلق طوال الوقت، أو بالعجز عن النوم، أو عن تناول اليسير أو الكثير من الطعام، أو الإفراط في تناول الكحول في محاولة لنسيان المشكلات. ولكن، يمكن أن يتظاهر فيزيائياً في شكل نوع من المرض أو الاضطراب.

العلاج الشوراني[1]:

يتزايد القلق اليوم أكثر فأكثر حول تأثيرات التوتر على الأفراد الذين يعانون من وضع خاص، مكرب أو رضحي. ولهذا السبب، يجري اليوم تقديم العلاج الشوراني للأشخاص الذين يواجهون، من خلال استخدامهم أو حياتهم العادية، وضعاً يحتمل أن يسبب لهم كرباً أو توتراً. ويتم تقديم ذلك في محاولة لتفادي أسوأ التأثيرات الجانبية للرضح، الذي يُعرَف باضطراب التوتر بعد الرضحي.

والأشخاص الذين يتلقون هذا النوع من العلاج الشوراني هم رجال الإطفاء الذين يبقون على قيد الحياة بعد حريق مدمر يموت فيه بعض الناس، وأحياناً بعض زملائهم؛ وضباط الشرطة الذين يشهدون موت زميل لهم على يد أحد اللصوص المسلحين؛ وتلاميذ المدارس من الصف نفسه عندما يقتل أحد زملائهم؛ والناجون من إحدى الكوارث، كتحطم قطار. ويمكن للعلاج الشوراني، إذا قُدِّم في وقت مبكر، أن يساهم في تخفيف التأثيرات الأسوأ للتوتر على الصحة عند هؤلاء الأشخاص.

وفي الحقيقة، يمكن أن يؤثر التوتر المفرط، بطريقة ما، في الجهاز المنيع كما يظهر عند الأشخاص الذين يعانون من حالة عقلية مكربة. ولهذا يجب على الأطباء، في الواقع، ألا يكتفوا بمعالجة المرض أو أعراضه، ولكن أيضاً حالة العقل التي أدت إلى الحالة. ومن سوء الحظ أن يكون القول أسهل من الفعل.

١- أو الإرشاد النفسي الذي يساعد الفرد على حل مشكلاته -المترجم.

تخفيف التوتر:

طُرِحَت اقتراحات عديدة لتفريج التوتر. وتشمل التمرين الفيزيائي، وتقنيات وتمارين الاسترخاء، والتأمل، وممارسة رياضة اليوغا، والمعالجة العطرية، والوخز الإبري، والتنويم المغناطيسي، والعلاج النفسي والعلاج الشوراني، وقد أثبتت هذه الإجراءات فعاليتها في الكثير من الحالات. ولكن، كثيراً ما يكون صعباً إقناع الشخص الذي يعاني من التوتر بمحاولة اللجوء إلى أي من هذه الإجراءات، ولا سيما عندما يواجه المكروب جداً صعوبة كبيرة في الاسترخاء.

تختفي أحياناً أعراض التوتر عندما يُنقَل الشخص من الوضع الذي يسبب التوتر، ولكن هذا لا يصح دائماً. وعلى أي حال، فإن النقل غير ممكن دائماً، لأن الناس يجب أن يكسبوا عيشهم وكثيراً ما يكون مكان العمل هو سبب التوتر.

ويبدو، دون شك، أن التوتر هو الذي يجعل جسم من يعاني منه أقل قدرة على حماية نفسه من المرض. ويبدو أيضاً أن الأشكال الشديدة من التوتر، كالصدمة الكبيرة أو الخوف الشديد المفاجئ، يمكن أن تسبب موتاً مفاجئاً دون أي سبب عضوي ظاهر.

وعلى الرغم من المقاربات العديدة التي اتُّبِعَت لتخفيف تأثيرات التوتر ومحاولة استئصال الأعراض والمرض الذي يمكن أن يسببه، فإنه يبقى مشكلة صحية رئيسة. ويصح هذا حتى عندما نعرف أن التوتر هو سبب الاضطراب. وكثيراً جداً ما يتفاقم الوضع عندما لا يكون لدى الطبيب العام دائماً متسع من الوقت للنفوذ إلى عمق مشكلة المريض ويكتفي فقط بإعطائه الدواء لمعالجة الأرق، أو الطفح الجلدي، أو لأي شكل فيزيائي يعبر فيه التوتر عن نفسه. إن هذا الطبيب لا يضع في حسابه أن العقل يعمل.

الداء النفساني الجسدي

أصبح من المعترف به في أوساط المهنة الطبية عموماً بأن هناك شيئاً اسمه المرض المرتبط بالتوتر، حتى وإن لم يتوفر الوقت لدى كل الأطباء لتحديد علامات هذه الحالة الحديثة أو حتى لو كانوا لا يميلون إلى ذلك. وهذا يُعد تقدماً.

كان المرض المرتبط بالتوتر حتى وقت قريب نسبياً يُعد مرضاً «نفسانياً جسدياً». وعبارة «نفساني جسدي» تعني «بخصوص العلاقة بين العقل والجسم». ففي علاقتها بالمرض، تشير العبارة إلى مرض فيزيائي نفسي المنشأ، وهو مرض ليس له، كما يبدو، سبب ظاهر.

وبمعنى آخر، إن المرض النفساني الجسدي، كما يقال، مرض موجود كله في العقل، مرض يُعد شاهداً على أن العقل يسيطر على المادة.

نظراً للزيادة التي طرأت اليوم على المعرفة بخصوص أسباب بعض الأمراض، أو بسبب البحث الذي يجري حول هذه المسألة، حدث تبدل في الآراء فيما يتعلق بما يوصف على أنه داء نفساني جسدي. فعلى سبيل المثال، كان يُعد الربو داء نفسانياً جسدياً، ولكن، يجري اليوم استقصاء المزيد من الأسباب الفيزيائية وتحديدها.

فالظن السائد اليوم هو أن العث والغبار المنزليين هما العاملان الأكثر تورطاً في الإصابة بالربو، ويتواصل البحث حول العلاقة بين تلوث الجو وهذا الداء. ولا شك في أن معدل وقوع الربو يزداد كثيراً في الحياة الحديثة بسبب تلوث الجو. والاعتقاد السائد، بشكل عام، هو أنه يمكن أن يكون هناك عنصر نفساني جسدي في الربو، ولكن القصة تبقى ناقصة.

فقد شاع الافتراض سابقاً بأن الأكزيما، التي كثيراً ما تترافق مع الربو، هي أيضاً داء نفساني جسدي، ولكن هذه الفرضية جوبهت أيضاً بالشكوك. وبما أنها تظهر غالباً مع الربو، فإن الاعتقاد يسود بأنه يمكن أن تكون استجابة جلدية لبعض العوامل نفسها التي تسبب الاضطراب التنفسي. وفي بعض الحالات، يمكن أن تقع بسبب الأرجية[1] لمادة ما.

كثيراً ما يخضع الناس الذين يعانون من حالات شديدة من الأرجيات إلى مجموعة كاملة من الاختبارات بقصد تعيين المادة أو المواد التي يمكن أن تسبب الأرجيات. وإذا حاولنا حصر هذه المواد المحتملة، فإن هذا يمكن أن يحتاج إلى عملية طويلة، وحتى عندما نعيِّن المادة، فإن الحياة تبقى صعبة بالنسبة لمن يعانون من الأرجية، لأنهم قد ينتهون إلى ضرورة تفادي بعض المواد الشائعة جداً كالمعدن. ومن المحتمل أيضاً أن تكون الاضطرابات الأخرى التي يُظَن أنها نفسانية جسدية نتيجة للأرجية.

وفيما يخص هذه الحالات، يبدو أن العلم يسير في الاتجاه المعاكس للاتجاه الناتج في حالة تأثير العقل على الجهاز المنيع. ففي الحالة الثانية، تبيَّن أن دور العقل أكبر أو، على الأقل، تبيَّن أنه موجود، في حين تبيَّن أن دوره في الحالة الثانية أصغر مما كان يُظَن سابقاً.

١- فرط التحسس لمادة ما -المترجم.

الألم النفساني الجسدي

كان جزء كبير من الألم يُعد سابقاً من منشأ نفساني جسدي أو كما يقال «كل شيء في العقل». ويتعذر على المرء أن يعرف إذا كان أحدهم يتألم أم لا، ولكن الطبيب غالباً يمكن أن يعرف ما إذا كان هناك أي سبب فيزيائي، كعضو مكسور أو تلف إلى العصب.

إن التقنيات التشخيصية الحديثة، كآلات أشعة X المعقدة، وتفاريس التصوير المقطعي المحوسب والتصوير بالرنين المغناطيسي برأت الكثير من الناس ممن كان يقال حول معاناتهم من مرض وهمي لأن إحدى هذه التقنيات كشفت حتى الآن سبباً فيزيائياً غير متوقع للألم. ولولا وجود هذه التقنيات التشخيصية، لبقي الألم مصنفاً في خانة الألم النفساني الجسدي. وهنا أيضاً، يسهم العلم في تقليص دور العقل كسبب للاضطراب في هذه الحالة من الألم

الألم ومكافحته:

يتحدث الناس أحياناً عن إحساس بالألم في جزء من الجسم من النوع الذي يشعرون به غالباً أثناء انهماكهم في نشاط ما، ويحدث ذلك الإحساس بالألم في وقت لا يكونون فيه منهمكين فعلاً في ذلك النشاط، بل يفكرون به. وهكذا، فإن الراقصة التي تشعر غالباً بألم في قدمها عندما تنجز خطوة معينة أثناء الرقص، يمكن أن تشعر بالألم نفسه خارج وقت نشاطها لمجرد تفكيرها بتلك الخطوة.

وأحد الرياضيين، ممن يشاركون في سباق الحواجز، يمكن أيضاً أن يشعر بألم في ساقيه عندما تخطر له أفكار السباق أو التدريب. فالعقل يربط العمل الذي نفكر فيه مع الألم ويسبب الألم.

إن الأشخاص الذين يدّعون المعاناة من ألم كهذا يقولون إنه يبدو حقيقياً وموجعاً تماماً كالألم الذي يشعرون به أثناء الممارسة.

وهناك ألم مماثل موحى به من العقل ادّعاه بعض الأشخاص الذين لم يتعرضوا بأنفسهم لأي شكل من إصابة أو رضح فيزيائي ولكن أقرباء لهم تعرضوا له. فعلى سبيل المثال، ادعى البعض أنه شعر بألم شديد في الظهر أثناء خضوع قريب له لعملية جراحية، سواء عرف، أو لم يعرف بإجراء الجراحة. وتحدث آخرون عن إحساسهم بألم غير معلل في الصدر دون سبب ظاهر، فقط ليكتشفوا أن قريباً لهم تعرض لهجمة قلبية.

والمثال الشائع لهذا هو الزوج أو الشريك الذي يدعي معاناته لآلام المخاض أثناء خضوع زوجته أو شريكته لعملية ولادة. فيزعم البعض أنه شعر بهذا الألم وهو بعيد عن البيت وقت الولادة ولم يكن يعرف بما يجري.

وكما ذكرنا سابقاً، هناك أيضاً حالات معروفة لتوائم، يشعر كل توأم بألم التوأم الآخر. فعلى سبيل المثال، يمكن أن يشعر توأم بألم كاوٍ في الساق إذا تعرض توأمه إلى إصابة سيئة في ساقه نتيجة لحادث سيارة أو قطار.

ويمكن أن يكون هذا على علاقة بما يعرف بالإدراك خارج الحس. وقد تحدثنا عن ذلك بالتفصيل في الفصل الثاني، التخاطر.

الأطراف الشبحية والألم الشبحي:

هناك نوع آخر شاذ من الألم الذي يوحي به العقل، كما يبدو، نظراً لعدم إمكان تعيين سبب فيزيائي لذلك الألم. وهذا الألم هو الذي يشعر به أحدهم في طرف شبحي ويعرف أحياناً بالألم الشبحي.

والطرف الشبحي هو إحساس بوجود عضو بعد أن يكون العضو الحقيقي قد تم بتره. ويتحدث من بُتِرَت أعضاؤهم عن تقديره بأنهم بمكن أن يشعروا بنوع من الضغط على ساق كانت قد بُتِرَت عند لمسهم للجَدَعَة. ويتحدث آخرون حول ألم واخز أو خفيف إلى شديد نسبياً في المكان الذي كان فيه العضو المبتور.

إن الأشخاص الذين ولدوا بأعضاء ناقصة أو الذين أزيلت أعضاؤهم في وقت مبكر من الطفولة لا يشعرون بهذا الإحساس للطرف الشبحي. ويُظَن أنهم لا يَخبُرون طرفاً شبحياً لأنهم لم يكوِّنوا صورة ذاتية لأنفسهم بأعضاء سليمة. وعلى العكس، يحمل الأشخاص الذين ألفوا وجود أعضائهم السليمة صوراً ذاتية لأنفسهم مع تلك الأعضاء ويواجهون صعوبة في إعادة تكوين صورتهم الذاتية دون عضو.

وأياً كان التعليل، فإنه لا يمكن أن يكون هناك تعليل فيزيائي لشعور المرء وكأن العضو المبتور ما يزال موجوداً أو تعليل للوخز أو الألم. والعقل، بالتأكيد، هو المسؤول عن هذه الحالة.

الألم شعور بالانزعاج يمكن أن يتفاوت، إلى حد كبير، في شدته. وهكذا، يبدو أن بعض الأشخاص يستطيعون تحمل درجات من الألم أكبر من آخرين في وضع متشابه. فنقول إن عتبة الألم أكبر عند هؤلاء الأشخاص لأن النقطة التي تبدأ عندها المعاناة من الألم أعلى منها عند أناس أشخاص آخرين.

والقدرة على الإحساس بالألم حيوية بالنسبة للسلامة والبقاء على قيد الحياة. فبعض الناس يولدون مع لا حساسية خلقية للألم مما يعرّضهم لخطر هائل يتمثل في إلحاق الأذى الشديد بأنفسهم. فعلى سبيل المثال، يمكن أن يحرقوا أنفسهم إلى حد خطير أو يكسروا عظامهم دون أن يدركوا ذلك. وبما أنهم لا يشعرون بالألم، فإنهم لا يعرفون غريزياً كيف يتفادون بعض الحالات الخطرة فيزيائياً التي يمكن أن تودي إلى موتهم.

إن الدماغ، عند الأشخاص العاديين، يحول الدفعات العصبية إلى ألم. وهناك مساران عصبيان رئيسيان متاحان للإشارات من الألياف العصبية التي تتلقى منبه الألم. وأحد هذين المسارين يرسل الإشارات بسرعة كبيرة، في حين يرسلها المسار الآخر ببطء أكبر.

وهذا يعلل لماذا نشعر غالباً بالألم من إصابة في موجتين. ففي البداية، نشعر عادة بوخزة حادة قصيرة لألم موضعي، وهذا الشعور تسببه الإشارة التي سلكت الطريق السريع، وبعدئذ، نشعر بألم عميق نابض أطول أمداً وأكثر انتشاراً، وهذا تسببه الإشارة التي سلكت الطريق البطيء. تتجه الإشارات إلى الوطاء في الدماغ، فيسجل الإشارات ويَسِمُها على أنها مؤلمة، وبعدئذ، تواصل رسالة الألم طريقها إلى قشرة الدماغ قرب مقدمة الدماغ.

ويبدو أن هناك حداً يمكن للناس عنده كبت الألم، كما لو أن العقل يأمر الجسم بتجاهله أو إدراكه. فالأشخاص الذين يتعرضون لإطلاق النار أو يتلقون إصابة مباشرة، كبتر قدم أو عضو بواسطة آلة، يقولون إنهم لم يشعروا بالألم فوراً، وأن الألم جاء لاحقاً، بعد تلاشي الصدمة الأولية. ويقول من شهدوا هذه الإصابات الرضحية إن المصابين لم يصرخوا في البداية، وفي بعض الحالات لم يتحدثوا عن ألم إلا في وقت لاحق.

وعلى النمط نفسه، تحدث أشخاص في وقت الحرب عن إصابات شديدة جداً تعرض لها بعض الجنود في المعركة، ومع ذلك لم يشيروا إلى أي شكل من الألم إلا بعد عدة ساعات من الإصابة. وتحدث بعض الأطباء حول حقيقة أن الجنود الذين يعانون من إصابات تعرضوا لها في معركة يتحملون تلك الإصابات، كما يبدو، دون مورفين أو كابح ألم، على عكس المدنيين الذين يعانون من إصابات مماثلة في ظروف مختلفة.

في هذه الحالات، يبدو من غير المحتمل أن الناس يتحملون ببساطة مستويات عالية من الألم. والأكثر احتمالاً أن العقل هو الذي كبت الألم لفترة ما.

علاوة على ذلك، هناك حالات يكون الأشخاص فيها إما قادرين على تحمل مستويات عالية شديدة جداً من الألم دون أن يُظهروا ذلك أو قادرين على تجاهله أو كبته. يحدث هذا

عند الراقصات، في أداء بعض خطوات أو أوضاع رقصات الباليه، وعند الرياضيين أو لاعبي الجمباز، عندما يبدو أنهم قادرون على دفع أنفسهم إلى ما فوق مستوى الألم.

هنا أيضاً يعمل الدماغ. فالبحث العلمي يشير إلى أن بعض أجزاء الدماغ تنتج مواد كيميائية، كالإندورفينات Endorphines، التي تعمل بالطريقة نفسها كالأفيون المخدر لكبت الألم أو تسكينه. وربما تعمل عن طريق حمل الدماغ على إرسال رسائل توقف سير رسائل الألم. وهكذا يبدو أن العقل، أو الدماغ على الأصح، يمارس تأثيراً على الجسم بقدر ما يتعلق الأمر بكبح الألم.

ويمكن أن تكون هذه الحقيقة هي التي تساعد الأشخاص في الطقوس الدينية أو العروض المسرحية على التمدد على فرش من المسامير، أو المشي على الفحم الحار أو القيام بإجراءات أخرى مؤلمة دون أن يظهر عليهم أنهم يعانون من الألم. وهناك نظرية بديلة تقول إن هؤلاء الأشخاص يمكن أن يتبدلوا إلى درجة يدخلون معها في غيبة عميقة إلى درجة لا يشعرون معها بالألم.

المَرُوقون[1]

عالجنا في المقاطع السابقة الأمراض النفسانية الجسدية والألم النفساني الجسدي وتبدل المواقف منها. والمروقون أشخاص يعانون من أمراض وهمية. فهم يعانون عادة من ألم غير مشخص، وكثيراً ما يتظاهرون في العيادات الجراحية بمجموعة كاملة من الأعراض، أكثرها غير مرئي.

إن أي ذكر لأعراض مرض ما عند أحدهم، أو أي معلومات في كتاب أو مجلة حول مرض ما يحملهم على تخيل الأعراض الموصوفة نفسها ويخافون من كونهم مصابين بالمرض نفسه. وفي الواقع، إنهم يُظهِرون، إلى درجة شديدة، صفة ربما تكون موجودة عند كل منا. فإذا قرأ أحدنا كتاباً طبياً من أي نوع يتضمن وصفاً للأعراض، فإنه كثيراً ما يتوهم، أثناء القراءة، أنه يحمل الأعراض نفسها-يشمل هذا أيضاً الكثير من الطلاب الجدد الذين يختارون الدراسات الطبية.

إن الفكرة حول احتمال وجود أعراض المرض عند من يقرأ عنه تكون عابرة عند الشخص غير المروق، لأنه يتخلص منها بعد فترة على أساس أنها غير واقعية، ولكنها تبقى

١- المروق، هو الشخص الذي يخالجه وهم أو وسواس المرض، والمُراق، هو وهم أو وسواس المرض -المترجم.

الشغل الشاغل عند الشخص الممروق، وكثيراً ما تتكون لديه القناعة بأنه مصاب بالمرض الذي قرأ عنه.

هذه الأمراض توجد عادة فقط في عقل الممروق، وبمعنى ما يكون محكوماً بعقله في هذا الخصوص. ولكن البعض يرى أن بعض الممروقين يحملون حساسية شاذة لبعض الإحساسات الجسدية، كالأوجاع والآلام الثانوية، والزكام، والجوع والعطش.

وهناك آخرون تترافق حالتهم بعامل نفسي، كأن يحملون ذكريات طيبة عن مرضهم في الطفولة حيث كانوا يحظون بالعناق والتدليل، ويتوقون لا شعورياً بالعودة إلى تلك الأيام. ومع ذلك، يبدو أن بعضهم يعاني من شكل من مرض عقلي.

أياً كانت خلفية المُراق الذي يتعرض مرضاه للخطر لأن الأطباء يمكن أن يعتادوا على الافتراض بأن الأمراض الخاصة بالممروقين كلها مجرد وهم إلى درجة يخطئون معه المرض الحقيقي الذي يمكن أن يتطور عند الممروق. فالأمراض التي يوحيها العقل والخيال يمكن أن يحل محلها مرض جسدي حقيقي.

الهستيريا

الهستيريا، من حيث الأعراض الفيزيائية الفعلية، أكثر مدعاة للقلق. فمن المعروف أن أشخاصاً أصيبوا بالعمى بسبب الهستيريا، وآخرون أصيبوا بالشلل في بعض أطرافهم أو كلها. وكثيراً ما تحدث هذه الحالات نتيجة لصدمة، سواء كانت فيزيائية أو عاطفية، أو نتيجة لحادث رضحي، وأحياناً يتحقق شفاؤهم نتيجة لصدمة أخرى، أو ضربة أو حادث من النوع نفسه.

والحَمْل الهستيري أيضاً، يحدث عندما تُظهر النساء أعراض الحمل دون أن يكون هناك حمل حقيقي. وهذا الحمل الهستيري أيضاً يسمى الحمل الشبحي أو توهم الحمل، الذي يحدث عادة عند النساء اللائي يتقن بشدة إلى أن يرزقن بأطفال، ولكن، في الوقت نفسه، يواجهن صعوبة في الحمل أو يعجزن عن تحقيقه.

يبدو أن العقل يتحكم، إلى حد كبير، في حالات الاضطرابات الهستيرية، ولكن المحللين النفسانيين النمساويين، سيغموند فرويد وجوزيف بْرُوور، يعتقدان أن العواطف المكبوتة هي التي تسبب هذه الحالات. تضمنت معالجة بروور للمريضة «آنا O»، كما سماها حفاظاً على خصوصيتها» حملها على التحدث عن تجاربها الماضية، وهذا أدى إلى تطور التحليل النفسي.

في عام ١٨٨٠، بدأت «آنا O» المعالجة وكانت في الحادية والعشرين من عمرها، وكانت تعاني من عدد من الحالات الهستيرية، كشلل الساقين وعضلات الرقبة. وقد عالج برووَر كل هذه الحالات عن طريق حملها على التحدث عن حياتها، بما في ذلك تلك التي يمكن أن تكون أدت إلى حالاتها الهستيرية. وقبل ذلك، كان التنويم المغناطيسي هو الشكل الأكثر شيوعاً للمعالجة.

وهناك شكل آخر للهستيريا لا يرتبط بالمرض بل بالعقل. إنها الهستيريا الجماعية، وهي حالة يجد الأفراد فيها أنفسهم يقومون بأعمال أو يقولون أقوالاً ربما لا يليق بهم، في الحالة الطبيعية، أن يقوموا أو يتفوهوا بها.

وهؤلاء عادة أعضاء في جماعة، ويكونون في حالة من قابلية الإيحاء إلى درجة يسهل معها غسل أدمغتهم ويتعرضون تكراراً لنوع من «الإيحاء». فعلى سبيل المثال، يمكن أن تتحول جماعة من القرويين العاديين الملتزمين بالقانون إلى رعاع يشنقون دون محاكمة إذا حرضهم شخص بتذكيرهم بما يُتوقَّع منهم أن يفعلوا عن طريق قيادتهم بنوع من عبارات منغَّمَة أو شعارات عدائية، مثل «امسكو به! امسكو به!» أو «اقتلوه! اقتلوه!» فيبدو وكأن قائد الحشد أو الحشد نفسه هو الذي يتحكم بعقولهم ويوجه أفعالهم، مع أن البعض يرى أن الأشخاص الذين تجرفهم الهستيريا الجماعية يقومون فقط بإطلاق العنان لمشاعر موجودة لديهم وكانت مكبوتة.

هناك مثال تاريخي للهستيريا الجماعية حدث في سالِم في أمريكا في مطلع تسعينيات القرن السابع عشر. هناك، أصيب الكثير من القرويين بهستيريا جماعية عندما راحوا يتهمون العديد من الناس بأنهم سحرة. فأجريت سلسلة محاكمات وأدين نحو عشرين شخصاً وتم إعدامهم.

العلاج الغفل[١] Placebo

العلاج الغفل شكل من المداواة الخاملة تماماً، كحبة مصنوعة كلياً من السكر. ويستخدم هذا العلاج أحياناً في التجارب الدوائية التي يُعطى فيها أشخاص من مجموعة دواء حقيقياً وآخرون دواء غُفْلاً.

١- ويقال أحياناً العلاج الإرضائي -المترجم.

ولكن هذه الطريقة لا تثبت دائماً فعالية الدواء، ما لم تكن المجموعة المعنية كبيرة فعلاً، لأن الأشخاص الذين يتأثرون بالإيحاء إلى درجة استثنائية ويميلون إلى الخضوع إلى عقولهم هم أكثر ميلاً إلى الإحساس بأن شفاءهم تم بواسطة حبة حتى وإن كانت غير مؤذية أبداً وخالية من الدواء. والظن السائد هو أن نحو ثلث المرضى من أي مجموعة للتجربة يتفاعلون مع الدواء الغفل، وبمعنى آخر، مرضى يحققون الشفاء بحبوب خالية من الدواء.

ولهذا السبب، يُعطى الدواء الغفل أحياناً إلى أشخاص يعانون من شكل سيء لمرض وهمي. ويستخدم الأطباء هذه الطريقة لكي يعتقد المرضى بأنهم يتناولون دواء يشفي مرضاً مؤكداً تماماً من وجهة نظرهم، على الرغم من عدم وجوده.

وبالطريقة نفسها، تعطى الأدوية الغفل أحياناً إلى أشخاص يظنون أنه لا يمكن أن يبقوا على قيد الحياة دون دواء موصوف مع عدم حاجتهم إليه. فإذا أحسوا أنهم ما زالوا يتناولون الدواء، فإنهم يشعرون بأنهم أفضل، وهي حالة يتفوق فيها العقل على المادة. ويستخدم الدواء الغفل أحياناً بالاقتران مع المعالجة النفسية.

إن تأثير الدواء الغفل، كما يُعرَف، يعتمد على الإيمان بأن الحبة التي يتناولها المريض تمارس تأثيراً مفيداً وشافياً على حالته. ولا يحتاج التأثير إلى الارتباط بالحبة. فأي شيء يوحي للشخص بأنه مفيد وشافٍ لحالته يمكن أن يُحدث مثل هذا التأثير.

فعلى سبيل المثال، لنفترض أن لدينا مجموعتين من الأشخاص الذين يعانون من الألم بعد خلع سني، فنقرر أن نعطيهم حقنة يفترض أنها مسكنة للألم، في حين لا تكون، في الواقع، أكثر من محلول ملحي غير مؤذٍ. نكلف طبيباً بمريلته البيضاء وسماعته حول عنقه بإعطاء الحقنة إلى أعضاء المجموعة الأولى، ونستخدم مضخة آلية متصلة بجهاز كمبيوتر لإعطاء الحقنة نفسها لأعضاء المجموعة الثانية، فماذا نجد؟ سوف يتحدث أعضاء المجموعة الأولى عن تفريج كبير للألم في حين يتحدث أعضاء المجموعة الثانية عن تفريج ضئيل. فـ «اللباس» التقليدي للطبيب يوحي بثقة وإيمان أكثر من الكمبيوتر.

ويبدو أن الدواء الغفل يمارس تأثيره في حالة الأشخاص الذين يحققون تفريجاً لألمهم أو أعراضهم على يد العرافين أو المشتغلين البدائيين في هذا الميدان. فالزي الكامل للطقس المتبع يمكن أن يمارس التأثير نفسه الذي تمارسه المريلة البيضاء وسماعة الفحص اللتين يستخدمهما الطبيب العصري.

من الواضح أن العقل يمارس عمله على امتداد الخط وما زال العلماء يبحثون في هذا. والاستجابة للدواء الغفل يمكن أن تكون نتيجة لبعض المواد الكيميائية التي تنطلق من

الدماغ، بالطريقة نفسها التي تنطلق، كما يُظَن، لتأجيل أو لكبت الألم. وأياً كانت الحقائق السليمة، فإن تأثير الدواء الغفل بالتأكيد يحركه العقل أو الدماغ

خلاصة:

هذه هي بعض الطرق التي يستطيع بها العقل، كما يدّعون، أن يؤثر في حالتنا الفيزيائية إلى الأسوأ. ويبدو أن البحث الحديث يعزز الادعاءات في هذه الحالات.

فمثلاً، ينتج الدماغ في بعض الحالات مادة يمكن أن تكبت الألم أو تؤجله. وفي حالات أخرى، ساعد البحث العلمي على تعيين السبب الفيزيائي للألم أو العلة لأن التقنيات الطبية التشخيصية أصبحت اليوم أكثر تعقيداً ويمكن أن تكتشف الاضطرابات التي كانت سابقاً تعزى إلى الخيال، أو العقل أو المَراق. ومما لا شك فيه أن العلم سوف يقطف ثمار البحث الحديث حول الدماغ، ولهذا يمكن أن يطرأ على إدراكنا لدور العقل المزيد من التغيير.

الفصل الثامن

العقل والصحة

يُعد العقل أيضاً قادراً على التأثير بحالتنا الفيزيائية نحو الأفضل. فيزعمون أنه يمكن أن يساعد على تحسين صحتنا وإحساسنا بالسعادة وتحسين فرص شفائنا من المرض.

العقل والمحافظة على الصحة:

عالجنا في الفصل السابق المرض في علاقته بالعقل وحالته. وإذا أخذنا بالحسبان ما أُثبت حول العلاقة بين حوادث الحياة، ولا سيما الحوادث المحزنة أو المشؤومة كالموت أو الطلاق، واعتلال الصحة أو الموت أيضاً، فإن الابتعاد عن هذه الحوادث يُعد نصيحة طيبة. ولكن، من الواضح أن هذا غير ممكن ما لم نحبس أنفسنا بعيداً عن العالم، وحتى لو فعلنا ذلك، فإن سوء الطالع سوف يبحث عنا بالتأكيد.

لامناص لنا سوى أن نتبنى مقاربة فلسفية ونسلّم بأننا سنتلقى نصيبنا كاملاً من الحياة المحزنة أو المشؤومة وأن هذا يمكن أن يمارس تأثيراً ضاراً على حالتنا الفيزيائية. والشيء الوحيد الذي يمكن أن نفعله هو أن نبذل جهداً لتحقيق الشفاء من التأثيرات العقلية والنفسية مستخدمين أي وسيلة تحت تصرفنا وذلك بأسرع ما يمكن.

لا يمكن تفادي حوادث الحياة التي يمكن أن تمارس تأثيراً ضاراً على صحتنا ولكن اتخاذ بعض الإجراءات ممكن لتفادي شيء آخر، هو الكرب، الذي يمارس، بتدخل من الدماغ، تأثيراً سيئاً على صحتنا الفيزيائية. ومع ذلك، من المستحيل تفادي الكرب بالكامل، وفي الواقع، يقال إن بعضه مفيد بالنسبة لنا، ولكن يمكن أن نحاول تفادي الحالات التي نعرف أنها ستسبب لنا كرباً غير ضروري، وهكذا سنحمل أدمغتنا على إرسال إشارة إلى أجسامنا لكي تحتج بصيغة نوع من المرض. وأحياناً يتوجب علينا أن نبدل أساليب حياتنا كلياً لكي نحتفظ بحياة خالية من الكرب بقدر الإمكان وكذلك أجسامنا وعقولنا.

التأمل:

هناك من يعتقدون أنه يمكن أن يستخدم المرء عقله لكي يساعده على المحافظة على صحته وإبعاده عن الكرب. ويحبِّذون أن يسعى إلى تسخير طاقات العقل لمساعدته على الاسترخاء، لأن التوتر قريب وثيق للإجهاد. فلنجرب برنامجاً للاسترخاء، أو التأمل أو رياضة اليوغا.

يرى الكثير من بيننا أنه نوع من الأشخاص الذين لا يمكن أن يسترخوا ببساطة، أو أنهم سيصابون بالملل، أو أن التأمل واليوغا يبدوان غامضين تماماً بالنسبة لأمثالهم من الناس العمليين. هذه الآراء شائعة جداً، ولكن الكثير ممن كانوا في بداية الحالة، جربوا الاسترخاء، أو التأمل أو اليوغا وحققوا فائدة منها.

إن التركيز، بدرجة كبيرة أو صغيرة، في كل هذه الرياضات جزء أساسي، ويلعب العقل فيها كلها دوراً مهماً، إذا لم يخضع فعلاً لسيطرة تامة. وحتى في التقنيات البسيطة للاسترخاء، يُطلَب من الشخص الذي يعزم على الاسترخاء أن يركز على كل جزء بدوره من جسمه لحمله على الاسترخاء.

كان التأمل لفترة طويلة جزءاً متمماً للكثير من الديانات الشرقية كوسيلة لإفراغ العقل من أي أفكار مشتِّتة، وذلك تحقيقاً للتنوير الروحي. ولكن الكثير من الناس يستخدمون التأمل اليوم ليس من أجل أي غرض روحي، بل كطريقة لتحقيق استرخاء تام، وهي طريقة لتحقيق تماس أوثق مع العقل أو استبار ما دون الوعي، أو طريقة لاكتشاف الاطمئنان الداخلي. فالتأمل ترويض دقيق للعقل يقتضي من المرء أن يركز أفكاره على نقطة واحدة إضافة إلى تنظيم أنفاسه وإرخاء مختلف أجزاء جسمه.

واليوغا أيضاً، تحتاج إلى ترويض عقلي علاوة على درجة من المرونة. وهنا أيضاً، يحظى التركيز وقوة العقل بأهمية خاصة.

من المعروف عن الأشخاص الماهرين فعلاً في فن اليوغا أنهم يبدلون سرعة قلوبهم، ويخفضون درجة حرارة أجسامهم، ويحملون جملتهم الاستقلابية على التوقف التام تقريباً. يمكن لقلة من بيننا أن يحققوا هذه الحدود القصوى، ولكن التأمل أظهر، في بعض الحالات، أنه يخفف سرعة القلب وسرعة التنفس ويخفض ضغط الدم. فالعقل، كما قلنا سابقاً، يؤثر في وظائف أجسامنا.

لنكن سعداء:

يعتقد الكثير من الناس أن الحالة النفسية الإيجابية تساعدنا على المحافظة على صحتنا بقدر ما يكون نظامنا الغذائي صحياً والقيام بالتمرين معقولاً، وأنه يجب أن نتخذ الإجراءات لتحقيق ذلك.

ويشعر الكثير من الناس بأن الحالة النفسية الإيجابية السعيدة تحررنا نسبياً من المرض، مع أنه لا يمكن دائماً أن يحقق كل منا مثل هذه الحالة النفسية. وربما يجب علينا أن نتذكر المثل القديم، «انظروا إلى الجانب المشرق.»

لا شك في أن الحالة النفسية التعيسة، كتلك التي تعقب نوعاً من مأساة شخصية، يمكن أن تؤدي إلى اضطراب فيزيائي. وبما أن هناك دليلاً علمياً على أن الدماغ يتدخل في هذه الحالة، وأن مواداً كيميائية تنطلق وتمارس تأثيراً كابتاً للجهاز المنيع، فإنه يمكن أيضاً أن تنطلق مادة كيميائية استجابة للحالة النفسية السعيدة، وتمارس تأثيراً منبهاً ومشجعاً لهذا الجهاز.

إن دور الحالة النفسية السعيدة في المحافظة على الصحة معروف منذ العهود التوراتية. فوفقاً للكتاب المقدس، »القلب المرح مفيد كالدواء«. وفي عصرنا، هناك من يُعد الضحك، بشكل خاص، عاملاً علاجياً.

العقل والشفاء:

كل ما سبق جميل جداً إذا كان المرء في صحة جيدة وصمم على البقاء كذلك. ولكن ماذا لو وقع ضحية لمرض ما، على الرغم من كل الجهود التي يبذلها للمحافظة على المرح، وجودة الغذاء، وحسن التمرين؟ فهل يمكن للعقل أن يساعده في هذه الحالة؟

أجبنا على هذا السؤال جزئياً في مقطع سابق، «العقل والمحافظة على الصحة». وكما ذكرنا، فإن الحالة النفسية السعيدة المرحة تقدم، كما يبدو، فرصة للمحافظة على الصحة أفضل من الحالة النفسية التعيسة الحزينة.

وينتج عن ذلك، وتلك هي الحال غالباً، أن بعض المرضى أو المصابين يميلون إلى التحسن بسرعة أكبر من أمثالهم ممن يعيشون في ظل حالة نفسية محايدة وبالتأكيد أكثر ممن يعيشون في ظل حالة تعيسة كئيبة. ذكرنا في الجزء الأول من هذا الفصل، «العقل والمرض»، حول الأشخاص التعساء، لا سيما بعد حادث حياتي محزن، أن البحث العلمي يشير إلى مادة كيميائية يطلقها الدماغ تضعف نشاط الجهاز المنيع.

تأثير الدواء الغُفْل والشفاء:

إن بعض المعلومات التي أوردناها في المقطع «الدواء الغفل» تحت عنوان «العقل والمرض» وثيقة الصلة هنا. وكما بيَّنا، هناك أشخاص على قناعة بأن مادة معينة ستساعد على تخفيف ألمهم أو أعراضهم، ويزعمون أن هذا التخفيف سببته المادة المزعومة، مع أنهم لا يعرفونها، وعلى الرغم من أن تلك المادة كانت خاملة وغير مؤذية.

يبدو أحياناً أن هذا الإيمان بالعلاج قادر على أن يشفي الاضطراب. وكما ذكرنا سابقاً، وكنتيجة لتأثير الدواء الغفل، فإن التخفيف الظاهري للأعراض ربما كان بسبب إطلاق مواد كيميائية من الدماغ، مماثلة للمواد التي تنطلق في حالة كبت الألم لوقت ما.

يمكن أن يكون تأثير الدواء الغفل عنصراً فيما يبدو شفاء إيمانياً ناجحاً. فالشخص الذي التمس المساعدة من شافٍ بالاعتقاد يظن أن لمسة من هذا سوف تسبب نوعاً من الشفاء، وفي الواقع، يكتشف المريض أحياناً أنه قد استفاد، أو يدَّعي ذلك. ولكن، هناك قدر كبير من التشكيك فيما يتعلق بالشفاء بالاعتقاد، ولكن المريض وحده هو الذي يعرف ما إذا كان هذا العلاج فعالاً.

إن هذا التأثير للدواء الغفل بالذات يتدخل، كما يبدو، في بعض الحالات الناجحة ظاهرياً للشفاء أو، على الأقل، في التخفيف أو الهدأة الناجحة للأمراض، التي يزعم البعض أنه حققها في واحد من أمكنة الحج المعروفة بقدراتها الشافية.

والحالة الأكثر شهرة هي حالة لورد في فرنسا، حيث ادّعت فتاة ريفية عمرها أربعة عشر عاماً واسمها برناديت سوبريوس أنها رأت خيالاً بشكل مريم العذراء. وأرشدها الخيال إلى ينبوع في كهف موحل، ما لبث أن أصبح علاجاً خارقاً مفترضاً ما يزال يجتذب آلاف الناس إلى لورد.

وهناك عدة آلاف من الحالات المسجلة للعلاجات الخارقة المزعومة في لورد، ولكن عدداً يقل عن مئة من هذه الحالات اعتبر خارقاً من قبل الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. فبعض حالات الشفاء يمكن عزوها تماماً إلى حقيقة أن الطب الحديث أثر على الشفاء، وبعضها إلى حقيقة أن الجهاز المنيع لدى المريض تغلب في نهاية الأمر على المرض وقلة قليلة منها إلى تأثير دواء غفل.

في حالة الشفاء الإيماني أو الروحي، لا يحمل المريض، كما يبدو، أي إيمان ديني بحدوث نوع من التخفيف للأعراض. وقد يُعد المعالجون الروحيون أنهم يستمدون مهارتهم من الله أو من عالَم روحي، ولكن المريض لا يحتاج بالضرورة إلى مشاطرتهم هذا الإيمان.

وقد سُجِلّت حالات لم يكن فيها إيمان أو ثقة مميزة من كلا الجانبين، المريض والمعالج، ومع ذلك زُعِم حدوث نوع من عملية شفائية. وتحدث حالة من هذا النوع عندما يلمس شخص شخصاً آخر مريضاً ويكتشف أنه قد شُفي من مرضه، أو يدعي بأنه شفي. وعندئذٍ، يمكن أن يواصل هذا الشخص عمله كمعالج نفسي.

ويدعي بعض المعالجين النفسانيين قدرتهم على رؤية هالة حول الناس ويقولون إن أي تشويش في هذه الهالة يُعد دليلاً على مرض من نوع ما. وهناك بعض المعالجين النفسانيين الذين يدّعون رؤية خطوط وبقع فضية مرسومة على أجسام المرضى، مما يشير إلى مصدر الألم أو المرض، وأن لمس البقعة حيث يظهر النور يؤثر في الشفاء. وكثيراً ما تكون هذه البقعة في مكان من الجسم مختلف عن المكان الذي يؤلم المريض.

يُقابَل المعالجون النفسانيون بقدر كبير من الشك. لأن أي شيء يخرج عما هو عادي، أو أي شيء يوحي بالخارق، يُواجَه غالباً بالاستجابة نفسها.

من الواضح أنه ما من أحد يعرف مصدر الموهبة التي يتمتع بها المعالج النفساني، هذا إذا كانت موجودة، ولكن هناك مرضى يدّعون بأن هذه الموهبة حققت لهم الشفاء. ونكرر القول إنه يمكن عزو درجة ما من النجاح إلى تأثير دواء غفل، أي إلى حقيقة وجود الإيمان عند المريض، وهو إيمان يولد أحياناً من حقيقة أنه سمع عن شخص آخر شفي من قبل معالج، وأن هذا المعالج يمكن أيضاً أن يحقق له الشفاء.

من الشائع جداً أن يوصف المعالجون النفسانيون بالأطباء الدجالين. بعضهم دجالون فعلاً، ولكن الدجالين موجودون في كل ميادين الحياة. فإذا لم يتسبب الدجال في أذى فعلي، أو لم يكن أجره مرتفعاً أو لا يبالغ في ادعاءاته، فماذا يمنع من اعتبار عمله إيجابياً إذا كان يقدم تفريجاً أو أملاً لمريض كان قد فشل كل الآخرين في تقديمه.

التفكير الإيجابي:

يتزايد الإيمان حتى بين أعضاء المهنة الطبية بأن الموقف الإيجابي للمريض تجاه المرض يمكن أن يعزز الجهاز المنيع في الجسم ضد ذلك المرض. وربما يمكن عزو هذا إلى تأثير الدماغ على الجهاز المنيع. فعلى سبيل المثال، تشير بعض الدراسات التي شملت نساء بقين على قيد الحياة بعد سرطان ثديي كان قد تم تشخيصه في مراحل مبكرة نسبياً إلى أن النساء اللائي أظهرن تصميماً على التحسن وتصميماً على التغلب على المرض عشن فترة أطول ومارسن أساليب حياتية طبيعية أكثر من أولئك اللائي سحقهن المرض كما يبدو. وهذا مثال آخر للعقل الذي يمارس تأثيره على حياتنا.

ولكن هذا لا يصح دائماً. فهناك حالات كثيرة لنساء كان لديهن كل ما يبرر بقاءهن على قيد الحياة-أمهات لعدة أطفال صغار، مثلاً-وكن يتمتعن بالشجاعة والتصميم على التغلب على المرض لم يعشن طويلاً بعد تشخيص السرطان وبعد المعالجة.

إن اتجاه العقل يمكن أن يساعد. ولكن معظم الأطباء متفقون على أن العوامل الفيزيائية المرتبطة بالسرطان، كطبيعة الورم، وموضعه، وعمر المرأة، أكثر أهمية.

من الخطأ الجسيم اعتبار أن المرأة التي لا تبقى على قيد الحياة بعد سرطان الثدي، أو، في الواقع، اعتبار أن أي شخص لا يبقى على قيد الحياة بعد مرض رئيس أو إصابة من أي نوع يفتقر إلى إرادة الحياة. لأن هذا يحمل الشخص المحتضر ذنباً غير مبرر أبداً. يمكن أن يمارس العقل تأثيراً قوياً، ولكن الجسم يهزمه أحياناً.

شفاء الجسم بواسطة العقل:

يشارك العقل أحياناً في معالجة المرض، ليس المرض العقلي فقط بل أيضاً بعض أشكال المرض الفيزيائي. ويصح هذا، بوجه خاص، على التنويم المغناطيسي، الذي يستخدم أحياناً في معالجة الألم.

ويبدو أن التنويم المغناطيسي يصرف انتباهنا عن الألم وهكذا يعرقل إدراكنا له. ويمكن أيضاً أن يستخدم في معالجة الطفح الجلدي المثابر وفي محاولة التخلص من الإدمان على التدخين، والأرق ومختلف الاضطرابات الأخرى.

إن الدعاية التي يحظى بها التنويم المغناطيسي سيئة غالباً. فكثيراً ما يرتبط في عقول الناس بعروض مسرحية وتلفزيونية تُظهر من يقومون به بمظهر البلهاء. يمكن أن يمارس مهنة التنويم المغناطيسي بعض الدجالين، كما هي الحال في كل ميادين الحياة، ولكن هناك، في الواقع، الكثير من المنومين المغناطيسيين المهرة جداً ممن يستخدمون مهاراتهم لأغراض علاجية. فهناك جزء كبير من أعضاء المهنة الطبية يعترفون بأن التنويم المغناطيسي يمكن أن يلعب دوراً في شفاء المرضى، وينصح بعض من هؤلاء مرضاهم بمراجعة منوم مغناطيسي.

يخشى الكثير من الناس تنويمه مغنطيسياً ويظنون أن الشخص عندما يكون منوَّماً مغنطيسياً فإنه يكون نائماً فعلاً، ولكن هذا ليس صحيحاً. فالتنويم المغناطيسي ليس نوماً. إنه حالة ينسحب فيها الشخص من الحالة الطبيعية للوعي، ولكنه، مع ذلك، لا يصل إلى حالة اللاوعي.

إنه كحالة بينية بين الوعي واللاوعي تعمل كرابط بين هاتين الحالتين. فعندما يكون الشخص في حالة تنويمية، فإنه يبقى واعياً ومستغرقاً بعمق، ولكنه في حالة يكون فيها مستعداً للإيحاء التنويمي، علماً أن إخضاع بعض الأشخاص للتنويم أسهل منه عند آخرين.

المعالجة النفسية والتحليل النفسي:

المعالجة النفسية أو التحليل النفسي، وكلتاهما شكلان يؤثران على العقل، تستخدمان أحياناً في محاولة لمعالجة اضطرابات الجسم إضافة إلى اضطرابات العقل بالذات، التي تُظهِر مدى أهمية العقل بالنسبة للصحة العامة. ويمكن الظن أن لهذه الاضطربات خلفية أو سبباً نفسياً.

ففي المعالجة النفسية والتحليل النفسي يتم تشجيع المريض على التحدث بعفوية عن كل الوقائع التي حدثت في حياته منذ الطفولة المبكرة، وقد ذكرنا سابقاً في المقطع حول الهستيريا أن معالجة «آنا O» من قبل جوزيف بروور، زميل سيغموند فرويد، هي التي أدت إلى ظهور التحليل النفسي. كانت «آنا O، تعاني من عدة أشكال من الشلل، وكان جزء من معالجة بروور يقضي بحملها على التحدث إليه عن كل شيء في حياتها لعله يتمكن من التعرف إلى السبب الذي يمكن أن يكون أدى بها إلى الهستيريا.

خلاصة:

وهكذا، يمكن أن يكون العقل قوة من أجل الصحة وأيضاً من أجل المرض. ويمكن أن يشارك في الشفاء كما يمكن أن يشارك في العلة. وما يزال ينقصنا الكثير مما يجب أن نتعلمه حول الآليات المحتملة لهذه الظاهرة وربما سيبقى الكثير مما لن نفهمه أو نبرره تماماً. ويمكن أن يبقى العقل والمصدر الحقيقي لقدرته ومدى هذه القدرة لغزاً فيما يتعلق بالصحة والمرض كما في الحالات الأخرى.

الفهرس

الإدراك المسبق Precognition

الاستبصار Clairvoyance

تجارب خارج الجسد

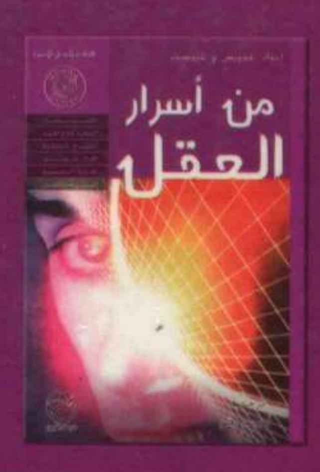
الحركة النفسانية

دور العقل في المرض

العقل والصحة

منشورات دار علاء الدين في مجال علم نفس والباراسيكولوجيا

- الطريق إلى القيادة وتنمية الشخصية
  . . . . ج. كورتوا
- من ما وراء الحس الميتافيزيقي
  . . . . ن. ف. فيبرنيتسوف
- الحياة بعد الحياة
  . . . . ريامونت ماودي
- هو وهي تحليل مائة حالة نفسية
  . . . . سمير عبده
- فانغا اعترافات البصارة العمياء
  . . . . كراسيميرا ستويانوفا
- التحليل النفسي للأقوال المأثورة
  . . . . سمير [illegible]
- التحليل النفسي للعقلية الشامية
  . . . . سمير [illegible]ـبده
- التحليل النفسي للمكاشفة الباطنية
  . . . . سمير عبده
- الكارما
  . . . . س.ن. لازيريف
- فن العلاج النفسي
  . . . . إيمي بوليس وبيل هينكس
- تشخيص الكارما
  . . . . س.ن. لازيريف
- من أسرار المشاعر الإنسانية
  . . . . جهينة الحموي
- الكارما تغيير المستقبل
  . . . . ميخائيل ميلر
- الخير والشر دراسة القوى الداخلية في الذات لعبة الثنوية
  . . . . فلاديمير جيكارينتسف
- التقمص أحاديث مع متقمصين تجارب عملية
  . . . . تورفالد دتلفزن
- تشخيص الكارما أسئلة وأجوبة
  . . . . س.ن. لازيريف
- نظرة في أعماق النفس دراسة القوى الداخلية في الذات
  . . . . فلاديمير جيكارينتسف
- الشفاء عن طريق التقمص معايشة الولادة المتكررة
  . . . . تورفالد دتلفرن
- كيف تكون ظاهرة فريدة
  . . . . ألبرت إيغناتنكو
- [illegible]ساج بدون لمس وطرق توجيه الطاقة وتصويب الكارما
  . . . . إ. كوبيتوف
- [illegible] الكارما طرق التطهير الروحاني
  . . . . س.ن. لازيريف
- [illegible] الماكروبيوتيك العودة للشباب وإطالة العمر
  . . . . غ. أوساوا
- وجوه مرضية تحليل مائة حالة نفسية
  . . . . سمير عبده
- مختارات في الخير والشر
  . . . . تورفالد دتلفرن
- الاكتئاب
  . . . . ليز ماكليرن
- الحب في ازدواجية الكون
  . . . . فلاديمير جيكارينتسف
- طاقة بيتك
  . . . . اكسندر بيريفين، نتاليا بيريفينا
- أبعاد الحياة ما بين التأمل والتركيز
  . . . . فلاديمير جيكارينتسف



Mind over Matter

هذا الكتاب...

هذا الكتاب يثير أشد القضايا تعقيداً، إذ يستفزنا لولوج عالم العقل والدماغ وما ينتج عنهما من مسائل مثيرة للجدل ونحن في عصر التفجر العلمي والمعرفي.

فما هي الروابط بين العقل والدماغ؟ وما هي وظائفها؟ وكيف يمكن تعليل الحركة النفسية؟ ما هي الأشباح الضَّاجَّة؟ وهل هي نوع من الخداع أم أنها نتاج لنشاط حركي نفسي؟ وهل يمكن أن نتغلب على المرض الفيزيائي عن طريق التفكير الإيجابي.

هذا الكتاب يكشف بعضاً من أسرار العقل وتفوقه على المادة، أي على بيئتنا وذواتنا الفيزيائية.

يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء الدين للنشر والطباعة والتر
سوريا ـ دمشق ص.ب. ٣٠٥٩٨ ـ هاتف ٥٦١٧٠٧١ ـ فاكس ٥٦١٣٢٤١